

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

كلية العلوم الإسلامية



محاضرات في مقياس علوم القرآن

موجهة لطلبة السنة الأولى ليسانس علوم إسلامية

-السداسي الأول-

إعداد الأستاذ:

د. حسام الدين مخلوف

السنة الجامعية: 2026/2025م

المقرر:

- (1) المدخل لعلوم القرآن الكريم.
- (2) تنزلات القرآن وتنجيّمه
- (3) جمع القرآن وتدوينه
- (4) علم المكي والمدني
- (5) علم أسباب النزول القرآني
- (6) علم القراءات القرآنية
- (7) علم التفسير
- (8) علم إعجاز القرآن
- (9) علم النسخ في القرآن الكريم
- (10) علم المحكم والمتشابه
- (11) علم الوجوه والنظائر
- (12) علم متشابه القرآن
- (13) علم إعراب القرآن
- (14) علم غريب القرآن
- (15) علم معاني القرآن

أهم المراجع:

- 01 . البرهان في علوم القرآن، للزركشي.
- 02 . الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي.
- 03 . مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني.
- 04 . مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان.
- 05 . مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح.
- 06 . علوم القرآن، لعدنان زرزور.
- 07 . الوجيز في علوم القرآن، لمنصور كافي.
- 08 . البيان في علوم القرآن للشيخ عبد الوهاب غزلان.
- 09 - التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتيقان لطاهر الجزائري.
- 10 - المحرر في علوم القرآن، لمساعد الطيار.
- 11 _ التبيان في علوم القرآن لمحمد علي الصابوني.
- 12 _ المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبه.
- 13 _ مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عبد الله دراز.
- 14 _ زبدة الإتيقان في علوم القرآن للسيد محمد علوي المالكي.
- 15 _ البيان في علوم القرآن لسليمان بن صالح القرعاوي ومحمد علي الحسن.

المحاضرة الأولى: المدخل لعلوم القرآن الكريم

1_ تعريف "علوم القرآن":

علوم القرآن مركب إضافي، مكون من كلمتين: "علوم" و"قرآن".

1_1_ تعريف "علوم":

لغة: معرفة الأشياء على الحقيقة التي هي عليها ظناً أو يقيناً، فهي جمع، مفردُها عِلْمٌ، والعلم أشهر من أن يعرف.

لكن إن أردنا تعريفه بالمقابل: فهو نقيض الجهل.

وإن أردنا أن نعرفه باعتبار معناه: فهو إدراك الشيء بحقيقته.

وإن أردنا أن نعرفه بالمرادف: فهو المعرفة والفهم للشيء على ما هو عليه.

اصطلاحاً: يطلق على المسائل المضبوطة ضبطاً خاصاً.

1_2_ تعريف "القرآن":

القرآن أشهر من أن يُعرّف أيضاً.

لغة: قد اختلفت فيه أقوال العلماء من حيث الناحية اللغوية هل هو مصدر أم وصف؟ ثم هل هو مهموز أم غير مهموز؟ والذي نرجّحه أنه مصدر مهموز على وزن فُعْلان بالضم كالغفران، والشكران، من قرأ يقرأ قراءةً، وقرآنًا، ويشهد لهذا الترجيح ورود القرآن بمعنى القراءة "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ [القيامة: 17-18]"، أي: قراءته. فـ "قرأ": تأتي بمعنى الجمع والضم والتلاوة، والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وقد نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسماً للكلام المعجز، المنزل على محمد ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله.

اصطلاحاً: يذكر العلماء تعريفاً مشهوراً له فيقولون: "هو كلام الله، المنزل على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز في لفظه ومعناه، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته".

شرح التعريف:

(كلام الله): كلام اسم جنس يشمل جميع الكلام لله تعالى ولمخلوقاته، وبإضافته إلى لفظ الجلالة (كلام الله) يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

(المنزل): أي مالم يكن من كلامه لأهل السماء ويدخل فيه كلامه المنزل على عموم أنبيائه، ويخرج كلام الله الذي استأثر به سبحانه: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً).

(على نبيه محمد): تقييد للمنزل كي يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

(المتعبد بتلاوته): يُخرج قراءات الآحاد، والأحاديث القدسية؛ لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك، كما خرج به سائر الحديث النبوي والقدسي لأنه لا يتعبد بتلاوتهما. فهو المتفرد في الصلاة والتي لا تصح الصلاة إلا به وأن الثواب على تلاوته لا يعادله ثواب.

(المنقول بالتواتر): أي ما رواه جمع عن جمع بحيث تحال العادة اتفقهم على الكذب، قيد خرج به الحديث القدسي والنبوي مما لم يرد متواتراً، وخرج به قراءات الآحاد والشواذ.

(المعجز بلفظه ومعناه): قيدٌ في التعريف؛ لأن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة والرسالة المتجددة الصالحة لكل زمان ومكان، وقد وقع به التحدي إلى يوم القيامة، قال تعالى: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً).

1_3_ تعريف المركب الإضافي "علوم القرآن":

لهذا المصطلح معنيان:

أ- معنى عام.

ب- ومعنى خاص باعتباره (فنّاً مدوناً)، وإليك الحديث عن كلّ نوع:

أ- علوم القرآن في المعنى العام:

هي: "أنواع المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم، سواء كانت خادمة له، أو دل القرآن على مسائلها وأحكامها".

فعلوم خادمة للقرآن كعلم التجويد، وعلم التفسير، وعلوم اللغة العربية، وعلم النسخ والمنسوخ، ونحو ذلك، وعلوم دل القرآن على مسائلها وأحكامها، كعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلم الفرائض، وعلم التاريخ، ونحو ذلك.

وقد توسع بعض العلماء في ذلك حتى أدخلوا علم الطب، وعلم الفلك، والجبر، والهندسة، وغيرها. ولكن ليس هنالك شك أن كل العلوم الدينية والعربية داخلة في معنى علوم القرآن في معناه العام.

ب- علوم القرآن باعتباره علماً مدوناً:

علوم القرآن باعتباره فناً مدوناً عبارة عن مباحث أساسية ينبغي الإمام بها لكل مقبل على فهم ودراسة القرآن الكريم، لذا يمكن تعريفه بأنه: "أنواع المعارف والعلوم الخادمة للقرآن الكريم كعلم النزول، وعلم الرسم، وعلم التجويد والقراءات، وعلم أسباب النزول، وعلم النسخ والمنسوخ وعلم التفسير ونحو ذلك". فهو: "العلم الذي يهتم بدراسة المسائل والمعلومات المتعلقة بالقرآن الكريم من حيث نزوله وجمعه وقراءته وتدوينه، ومكيه ومدنيه، والنسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، والإعجاز وغيرها من العلوم المتعلقة فيه". وبعبارة أخرى هو: "مجموعة المعارف والعلوم المتعلقة بالقرآن الكريم من ناحية لفظه ومعناه وشكله الظاهري".

- فیدخل فی اللفظ: العلوم المتعلقة بالتجويد والقراءات، الوقف والابتداء...
 - ويدخل في معناه: علم التفسير، وأسباب النزول، النسخ والمنسوخ، المطلق والمقيد، المحكم والمتشابه، المبهمات، الإعجاز، المكي والمدني، توجيه القراءات، الوجوه والنظائر، مشكل القرآن.
 - ويدخل في شكله الظاهري: علم الرسم وعلم الضبط وعلم عند الآية وعلم التحزيب.
- وممكن أن نجعل اعتبارات علوم القرآن كالاتي:

- تاريخ التنزيل: أسباب النزول، المكي والمدني، النسخ والمنسوخ، الرسم والضبط..
- الاحتجاج والتدليل: الإعجاز، الدفاع عن القرآن، القراءات وتوجيهها...
- التفسير والتأويل: الوجوه والنظائر، المبهمات، مشكل القرآن، الترجمة...
- التعليل والتحليل: المحكم والمتشابه، الدراسات اللغوية بمختلف مستوياتها...

2_ أسماء القرآن وأوصافه

2_1 من أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء كثيرة منها:

- 1- "القرآن": قال تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة: 77]. وسمي بذلك لأنه يقرأ.
- 2- "الكتاب": قال تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) [البقرة: 2] وسمي بذلك لأنه يقرأ ويحفظ في الصدور وأيضاً يُكتب.

تنبيه: جاء لفظ الكتاب في القرآن الكريم ويراد به غير القرآن فمن ذلك:

- أ/ جاءت بمعنى التوراة في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ).
 - ب/ جاءت بمعنى الكتابة في قوله تعالى عن عيسى: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ).
 - ج/ وجاءت كلمة الكتاب والمراد بها اللوح المحفوظ في قوله تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ) وقوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ).
 - د/ وجاءت بمعنى أي كتاب في قوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ).
 - هـ/ وجاءت بمعنى كتاب الأعمال في قوله تعالى: (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا).
- ومن أسماء القرآن أيضاً:

1. 3- "الفرقان": قال تعالى: الفرقان (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

[الفرقان: 1]، وسمي بذلك لأن الله تعالى فَرَّقَ به بين الحق والباطل، أو لأنه نزل مفرداً.

- 4- "الذكر": قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ). [الحجر: 9]

- 5- "التنزيل": قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

2_2 من أوصاف القرآن:

وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك منها:

- "النور": (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [التغابن: 8]
- "هدى" و "رحمة": (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ) [لقمان: 2-3]
- "شفاء" و "موعظة": (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) [يونس: 57].
- "مبارك": (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأنعام: 155].

- "مبين" (قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين) [المائدة:15].
- "الحكيم" (تلك آيات الكتاب الحكيم) [يونس:1].
- "بشرى" (مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) [البقرة:97].
- "عزيز" (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتابٌ عزيز) [فصلت:41].
- "مجيد" (بل هو قرآنٌ مجيد) [البروج:21].
- "بشير" و"نذير" (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) [فصلت:4].

ملاحظات:

- مصدر أسماء القرآن الكريم وصفاته توقيفي، فلا نسميه ولا نصفه إلا بما جاء في القرآن أو في السنة النبوية الصحيحة.
- الصحيح أن لفظ "المصحف" ليس اسماً للقرآن ذاته، وإنما هي اسم للمصحف التي كتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه اسم المصحف إلا بعد جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وذلك في صحف ضم بعضها إلى بعض فسميت مصحفاً، ثم صار اسماً للكتاب بعد ذلك.
- المصحف هو مجموع الصحف والأوراق التي كُتِبَ عليها القرآن الكريم، والفرق بينه وبين القرآن يتجلى في هذه الفروق:

- 1- أن القرآن كلام الله المسموع ولا يسمى كلام الله مصحفاً حتى يكتب.
- 2- المصحف هو الكتاب الورقي أو الجلدي أو الإلكتروني الذي كتب فيه كلام الله تعالى، وهو سنة راشدة.
- 3- وجود الفواصل التحزيبية والأشكال الجديدة والحركات والنقاط والمدود المتعلقة بالخط العربي وتطوره، ليست من القرآن وهي داخلة في المصحف -علم الضبط-.
- 4- المصحف يحرم على الكافر مسه، بخلاف سماع القرآن.

- 5- حرمة مس المصحف على المحدث حدثا أصغر -على الراجح- دون القراءة.
- 6- المصحف يجمع على مصاحف، والقرآن لا يجمع؛ لأنه واحد لا تعدد فيه.
- 7- لا يقال (بيع القرآن)، وإنما (بيع المصحف) لأن القرآن لا يتصور بيعه.
- 8- من ملك مصحفا فإنه يقول (هذا مصحفي) بينما لا يقول (هذا قرآني، قرآن ابن مسعود)؛ لأن القرآن هو كلام الله تعالى.
- 9- القرآن الكريم لا يمكن لأي كائن أن يدنسه أو يحرفه فهو محفوظ بحفظ الله له، وأما المصحف الشريف فقد تتعرض نسخة منه للاعتداء من قبل من ختم الله على قلوبهم وأعمى أفئدتهم.

2-3_ معنى الآية:

لغة: لها ثلاث معان:

- الأول: جماعة الحروف، تقول العرب خرج القوم بأيّتهم أي بجماعتهم.
- الثاني: العجب تقول العرب: فلان آية في العلم وفي الجمال، فكأن كل آية عجب في نظمها، والمعاني المودعة فيها.
- الثالث: العلامة، تقول العرب: خربت فلان وما بقي فيها آية، أي علامة؛ فكأن كل آية في القرآن علامة.
- اصطلاحاً:** قرآن مركب من جمل، ولو تقديراً ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة، وأصلها العلامة.
- وقيل: هي الواحدة من المعدادات في السور، سميت به لأنها علامة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدى بها.

2_4_ معنى السورة:

لغة:

- من العلماء من يرى أنّ السورة تهمز من السؤر، ومنهم من يرى أنها لا تهمز من السور.
- فمن همزها جعلها من أسأرت، أي: أفضلت من السؤر، وهو ما بقي من الشراب في الإناء؛ كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم أيضاً وسهّل همزتها.

ومن لم يهزمها: شبهها بسور البناء، أي: القطعة منه. وقيل من سور المدينة؛ لإحاطتها بآياتها، واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد.

ويحتمل أن تكون السورة بمعنى الرتبة؛ لأن الآيات مرتبة في كل سورة ترتيبا متناسبا.

وقيل: إنما سميت سورة لارتفاع قدرها، لأنها كلام الله تعالى، وفيها معرفة الحلال والحرام، ومنه رجل سوار، أي: يعلو بفعله ويرتفع.

اصطلاحا:

مجموعة آيات ذات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.

تقسيم القرآن:

أرباع القرآن على حسب السور: ينقسم القرآن على حسب السور إلى:

- 1 - السبع الطوال: من البقرة إلى التوبة.
- 2 - المئين: ما بعد السبع الطوال.
- 3 - المثاني: وهي التي تقل آياتها عن المئة وتثنى فيها الأنبياء والقصص.
- 4 - المفصل: لكثرة الفواصل بين الآيات: وهي من قاف إلى الناس .

أرباع القرآن:

على حسب الأجزاء والأحزاب:

- الربع الأول: من الفاتحة إلى الأنعام.
- الربع الثاني: من الأعراف إلى الإسراء.
- الربع الثالث: من الكهف إلى فاطر.
- الربع الرابع: من يس إلى الناس.

أثلاث القرآن:

- الثلث الأول: إلى "والسابقون الأولون..." التوبة.
- الثلث الثاني: إلى "فمالنا من شافعين" الشعراء.
- الثلث الثالث: إلى سورة الناس.

أنصاف القرآن:

- نصفه بالحروف: حرف النون من قوله "نكرا" في سورة الكهف.
- نصفه بالكلمات الدال: من قوله "الجلود" في سورة الحج.
- نصفه بالآيات: "يأفكون" من سورة الشعراء.
- نصفه على عدد السور: الحديد.

عدد السور والآيات:

- عدد سور القرآن: 114 سورة.
- عدد كلماته: 77437 كلمة.
- عدد حروفه: 323015 حرفا.
- عدد آيات القرآن: 6204، 6214، 6219، 6225، 6236.

أسئلة:

سؤال 1: ما الحكمة في تقطيع القرآن سورا؟

الجواب:

- حتى تكون كل سورة بل كل آية فنا مستقلا وقرآنا معتبرا.
- كل سورة بمفردها معجزة، وآية من آيات الله تعالى، وجاءت السور طولا وقصارا وأوساطا تنبيهها على أن الطول ليس من شرط الإعجاز.
- لحكمة بالغة في التربية والتعليم، وتدرج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها، تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه.
- تيسير التلاوة: فالمطيل في التلاوة يرتاح عند ختم كل سورة ارتياح المسافر إلى قطع المراحل.
- لكل سورة نمط مستقل فسورة يوسف تترجم عن قصته، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وكامن أسرارهم وغير ذلك.

سؤال 2: هل كانت الكتب السماوية السالفة كذلك؟

أغلب الظن لا وذلك لوجهين: أحدهما أنها لم تكن معجزات من ناحية النظم والترتيب والآخر أنها لم تيسر للحفظ.

سؤال 3: ما فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟

لتفصيل القرآن وتقطيعه سوراً فوائد كثيرة، منها:

__ أن الكتاب إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً.

__ أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخره كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.

3_ فضل هذا العلم وثمرته:

علوم القرآن من أفضل العلوم وأشرفها وأسمأها؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم كما هو معلوم، ومن ثماره العظيمة:

1- تيسير تفسير القرآن الكريم وفهمه.

2- معرفة الجهود العظيمة التي بذلها السلف لدراسة القرآن الكريم وعنايتهم به وبعلمه.

3- التزوّد بالقواعد والأصول التي تمكّن المسلم من الدفاع عن هذا الكتاب.

4- الثقافة العامة حول القرآن الكريم.

4_ تاريخ علوم القرآن:

كانت المباحث التي تتعلّق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وإعجازه، وجمعه وترتيبه، وناسخه ومنسوخه، وقراءاته ونحو ذلك من الموضوعات المعروفة عند الصحابة وإن لم تكن مدونة مكتوبة، وإنما مسلكهم في تحصيلها الفهم السديد، أو تذوق بيان القرآن وإعجازه، كل هذا كان سليقة وذكاء في القريحة وبتوجيه وإرشاد من الرسول صلى الله عليه وسلّم.

وبقيت العلوم تؤخذ بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين، حتى كانت بداية التدوين لبعض علوم القرآن:

قام سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ليدونوا لنا الروايات التفسيرية المروية عن الصحابة وكبار التابعين، وبذلك كانت أول حركة لتدوين علوم التفسير.

وكتب علي بن المديني شيخ الإمام البخاري كتابا في أسباب نزول القرآن، وأبو عبيد القاسم بن سلام كتب في الناسخ والمنسوخ، ودون الفراء كتابه في معاني القرآن، وذكر محمد بن جرير الطبري في مقدمة تفسيره أبحاثا في علوم القرآن كبحث الأحرف السبعة.

وأما ما يطلق عليه علوم القرآن، فلم يتناول أحد تدوينه ككل بل شرحوا أبعاضه وأجزاءه، ففي القرن الرابع الهجري ألف أبو بكر السجستاني في غريب القرآن -وهو جزء من علوم القرآن-، وأول ظهور لهذا المصطلح كان في القرن الرابع على يد محمد بن خلف بن المرزبان الذي ألف كتابه: «الحاوي في علوم القرآن»، أو في القرن الخامس على يد علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي، الذي ألف كتابه: «البرهان في علوم القرآن». ثم انهارت التأليف في كل فن من الفنون، فكتب السهيلي في مبهمات القرآن، وكتب أبو عمرو الداني في القراءات والرسم والضبط، وكتبوا في أسباب النزول، والإعجاز، والأمثال، والقرآن وحججه وجدله.

وكتاب الحوفي «البرهان في علوم القرآن» غير كتاب الزركشي -الموجود منه حاليا خمسة عشر جزءا-، ويبدو من طريقته أنه كتاب تفسير، وإن تعرض من خلال تفسيره إلى شذرات في علوم القرآن، التي يظن أنه قد تعرض لها بإسهاب في المقدمة المفقودة من تفسيره مع الأجزاء الخمسة عشر الأولى، ولم يبق بأيدينا إلا النصف الآخر من الكتاب.

ثم جاء بدر الدين الزركشي وألف كتابه: «البرهان في علوم القرآن» وهو من خير كتب علوم القرآن، وكتابته يقع في أربعة مجلدات.

وتلاه السيوطي بتأليف كتابه: «التحبير في علوم التفسير». وكتابته «الإتقان في علوم القرآن» الذي يعتبر عمدة في هذا العلم.

وهذان الكتابان من أفضل الكتب وأوسعها في علوم القرآن.

وأشهر الكتب كذلك: «مناهل العرفان في علوم القرآن» للشيخ الزرقاني وهو أوسع هذه الكتب. ولا يزال يكتب في هذا المجال إلى عصرنا الحالي، فهناك العديد من الكتب والمنظومات والرسائل العلمية.

واجب منزلي:

1_ تلخيص المحاضرة الأولى في شكل خرائط ذهنية.

2_ جمع وكتابة أكبر قدر ممكن من عناوين الكتب التي أُلِّفت في علوم القرآن مع ذكر مؤلفيها.

المحاضرة الثانية: تنزلات القرآن وتنجيته:

1_ الوحي:

اختار الله تعالى من عباده نفوساً لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدّها للوحي السماوي، ليلقي إليها برسالاته التي تسدّ حاجة البشر في رقي وجدانه، وسموّ أخلاقه، واستقامة نظامه، وهؤلاء هم رسله وأنبيأؤه. ولا غرابة -عندنا اليوم- في أن يكون هذا الاتصال بالوحي السماوي. ونحن نرى الناس تتخاطب في الهاتف وتتعامل من خلاله، وقد يكون أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، وقد لا يسمع الجالس بجانبهما شيئاً سوى أزيز كدوي النحل الذي في صفة الوحي. وقد شاهد الوحي معاصروه ونقل إلينا بالتواتر المستوفي لشروطه بما يفيد العلم القطعي إلى الأجيال اللاحقة.

1_1_ تعريف الوحي:

لغة:

يقال: وَحَى إِلَيْهِ وَلَهُ، "يَحْي" وَحْيًا أَسَارَ وَأَوْمًا إِلَيْهِ، وَأَوْحَيْتُ إِلَيْهِ إِذَا كَلَّمْتَهُ بِمَا تَخْفِيهِ عَنْ غَيْرِهِ، فَكُل مَا تَلْقِيهِ إِلَى غَيْرِكَ خَفِيَّةٌ فَهُوَ مِنَ الْوَحْيِ. فالوحي في اللغة يعني: الإعلام في خفاء بأي صورة كانت. فهو: "الإعلام السريع الخفي، إما في اليقظة وإما في المنام". والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

1. الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ).
2. الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل: (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ).
3. الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا).
4. وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ).

5. ما يليق الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ).

اصطلاحاً:

عُرِفَ الوحي في اصطلاح الشرع بتعريفات أخص من التعريف اللغوي؛ ومن أشهرها وأجمعها: "كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه". وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى.

1_2_ كيفية وحي الله إلى الملائكة:

جاء في القرآن الكريم ما ينصّ على كلام الله لملائكته: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا).

وعلى إيحائه إليهم: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا). وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: (فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا) (فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا). وهذه النصوص متآزرة تدل على أنّ الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن النّوّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماء رجفة» -أو قال: رعدة- شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صَعِقُوا وَخَرُّوا سَجْدًا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مرّ بسماء سألها ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: "قال الحق وهو العلي الكبير"، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

فهذا الحديث يبين كيفية الوحي: تكلم من الله، وسماع من الملائكة، وهول شديد لأثره.

1_3_ الأدلة العقلية على إثبات الوحي للنبي ﷺ:

إنّ ثبوت الوحي في تاريخ الأنبياء من الأمور المسلّم بها بين أهل الديانات الربانية السابقة، فلم يكن النبي ﷺ أول بشر أوحى الله إليه، أو ادّعى ظاهرة لم تكن معروفة في الأنبياء السابقين له.

وقد قال ورقة بن نوفل - الذي كان قد تنصر في الجاهلية - للنبي ﷺ عندما ذهبت به زوجته خديجة - رضي الله عنها - إليه فقال: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، وَإِنْ أَذْرَكْنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"، وَالنَّامُوسُ: صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي يُطْلَعُهُ بِمَا يَسْتُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ.

فهي ظاهرة ليست بدعة في التاريخ، وقد تضافرت الأدلة العقلية والنقلية في الكتاب والسنة بما يؤكد ثبوت الوحي من الله ﷻ لنبيه الكريم محمد ﷺ، وهذه الأدلة هي من مؤكدات النبوة.

2_ حالات النبي ﷺ مع الوحي:

2_1_ عند نزول الوحي عليه: ما كان يظهر على النبي ﷺ من ثقل جسمه، وتفصده عرقاً في الليلة الشاتية، ويسمع عند جبينه دوي كدوي النحل ونحوها مما هو خارج عن مقدور إنسان أن يتصنعه، ونقل الصحابة ذلك نقلاً متواتراً بما يفيد اليقين ويؤكد صدقه.

2_2_ عند انقطاع الوحي عنه في وقت هو أحوج ما يكون إليه: وقد كان الوحي ينقطع عنه في وقت هو في حاجة إليه، ولا ينزل طوع إرادته مما يؤكد صدق النبي ﷺ، وذلك عندما كان يُسأل عن بعض الأمور ولم يكن له في ذلك علم من الله تعالى، فينتظر حتى ينزل عليه الوحي كي يجيب السائل.

2_3_ عندما ينزل الوحي مصوباً أو معاتباً له: ومما يؤكد صدقه ﷺ ما جاء في القرآن الكريم من عتاب وتصويب لبعض مواقفه.

2_4_ شمائل النبي ﷺ تدل على صدقه: فقد قامت الأدلة القاطعة على صدق النبي ﷺ من مهده إلى بعثته فلم يعرف عنه كذب في حياته قط، وقد شهد بذلك أعداؤه قبل أتباعه وأصحابه. فعندما سأل هرقل أبا سفيان في قوله: "فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ: لا، فَقَالَ هِرَقْلُ: فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ".

2_5_ نصره الله تعالى له: ومما يؤكد صدقه نصره الله له، وإهلاك أعدائه، وتولي أمره وأمر من آمن معه؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين، ولا ينصر الكاذبين.

2_6_ ما أيده الله به من معجزات: فقد أيده الله بمعجزات كثيرة تدل على صدقه، وعلى رأس تلك المعجزات القرآن الكريم؛ الذي تحدى الله به الخلق، وخاصة من يشك في صدق النبي ﷺ فليأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى سورة من مثله.

2_7_ علوم القرآن الواسعة المتنوعة: ما جاء في القرآن من علوم ومعارف متنوعة حوت كل مباحث الإيمان، وشملت كل فضائل الأخلاق والأعمال، وتشريعات أشرقت لها جوانب الحياة المختلفة المالية، والجنائية، والعسكرية، والسياسية، والاجتماعية، ونحوها، وعلوم كونية شملت السماء وزينتها، والأرض وما عليها من جبال، وبحار، وأنهار، ورياح، ونبات، وحيوان وغيرها، وعلوم نفسية وتربوية غائرة في أعماق النفس بشكل تختار فيه العقول في زمان العلم -فضلا عن غيره من الأزمنة-، ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها من تلقاء نفسه، في سعتها، ودقتها وعمقها.

2_8_ القيم التي دعا إليها النبي ﷺ تؤكد صدقه؛ لأنَّه دعا إلى ما دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، من عبادة الله وحده دون سواه وترك عبودية غيره، ودعا إلى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، فهو لم يأت إلا بما بعث الله عليه المرسلين، ولهذا عندما سأل هرقل أبا سفيان وقال له: "فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ). فَقَالَ لَهُ: هَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ، قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنََّّهُ خَارِجٌ وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنََّّهُ مِنْكُمْ وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ".

2_9_ الأمور الغيبية في القرآن الكريم: ما جاء في القرآن الكريم من أنباء الغيب التي أوحى الله إليه بها والتي لا يمكنه معرفة حقائقها إلا عن طريق الوحي؛ خاصة تلك الأخبار التي هي لأمم اندثرت آثارهم من الأرض.

3_ أقسام الوحي:

3_1_ الوحي من حيث العموم:

ينقسم الوحي من حيث العموم إلى قسمين:

3_1_1_ وحي باللفظ والمعنى: وهذا هو القرآن الكريم، وقد أُمِرْنَا بالتعبد بتلاوته، والتدبر في معانيه، واتباع وحيه، والدعوة لهديه.

3_1_2_ وحي بالمعنى دون اللفظ: وهذه هي سنة النبي ﷺ، وقد أُمِرْنَا بأخذها والعمل بها، فالأخذ بالسنة أخذ بالقرآن الكريم.

3_2_ الوحي من حيث النزول:

ينقسم وحي الله ﷻ لرسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ وغيره من الرسل من حيث طرق نزوله إلى قسمين، وهما:

أ. وحي بدون واسطة: وهو على ثلاثة أنواع:

1. الرؤيا في المنام.

2. النفث في الروع.

3. كلام الله لنبيه من وراء حجاب.

ب. وحي بواسطة رسول من الملائكة: يرسل الله ﷻ الملك بالوحي ليبليغ رسالته لرسله، كما في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء: 192-195].

وكلتا الحالتين مذكورة فيما يروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أَنَّ الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله.... كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول".

وفيما يلي تفصيل كل قسم:

3_2_1 وحي بدون واسطة:

وهو على ثلاثة أنواع:

أ. الرؤيا الصادقة في النوم:

رؤيا الأنبياء وحي من الله ﷻ، وقد كان أول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، كما جاء في حديث عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أَنَّهَا قَالَتْ: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ".

وقد ثبتت الرؤيا لنبي الله إبراهيم - عليه السلام - عندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

ب. النفث في الروع:

وهو أن يلقي الله ﷻ الوحي في قلب ونفس الرسول ﷺ على وجه لا يستطيع دفعه ولا يجد فيه شكاً، ولا يتصور معه المخالفة، ولا التردد، بل يوقن أنه من عند الله ﷻ، وليس من خطرات النفس، ولا نزغات الشيطان، فعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوا بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته".

ج. كلام الله لنبيه من وراء حجاب:

وهو أن يكلم الله تعالى نبيه كلاماً حقيقياً يليق بجلاله دون تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا إلحاد، يسمعه منه نبيه ﷺ ويعيه.

3_2_2_ وحي بواسطة رسول من الملائكة:

ما يكون بواسطة رسول من الملائكة يرسله الله تعالى كجبريل أو غيره من الملائكة فيوحي إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- ما كلفه الله بتبليغه وإنزاله، وقد اختص جبريل عليه السلام بإنزال الوحي على النبي ﷺ كما في آية الشعراء السابقة. ولا تخلو الحالات التي أتى فيها جبريل عليه السلام بالوحي إلى النبي ﷺ من حالات ثلاث، وهي:

أ. صورته الحقيقية: فيأتي جبريل عليه السلام في صورته التي خلق عليها؛ له ستمائة جناح، وقد سد الأفق وهي حالة نادرة، قد ورد أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين: الأولى كانت في الأرض في مكة على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق، والثانية في السماء عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج.

ب. صورة بشر: فيأتي إليه في صورة رجل سوي، كصورة دحية الكلبي أو أعرابي فيكلمه ويراه الحاضرون، ويسمعون كلامه ويفهمونه، ولكنهم لا يعرفون أنه جبريل؛ ولكن النبي ﷺ يعلم يقيناً أنه جبريل جاء ليعلمهم أمر دينهم، كما في حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ..." الحديث.

ج . صورة خفية: فيأتي إليه جبريل عليه السلام فينزل عليه بالوحي خفية دون رؤيته، ولكن يظهر أثر الوحي، والتغير على رسول الله ﷺ، فيغط غطيظ النائم، ويثقل جسده ثقلاً شديداً، ويتصبّب عرقاً في جبينه في اليوم الشديد البرد، ويكون وقعه عليه كصلصلة الجرس، ويسمع الحاضرون عند وجهه كدوي النحل دون أن يفهموا منه شيئاً، أمّا هو فيفهمه ويعي ما يوحي إليه به الملك وبمجرد ما ينقسم عنه يجد ما أُوحي إليه في قلبه، وهو يدرك يقيناً أنه وحي من الله سبحانه من غير لبس.

والقرآن كلّ نزل على هذه الحالة التي يكون فيها جبريل على ملكيته، ولم يثبت . والله أعلم . أن جبريل عليه السلام أتاه بشيء من القرآن وهو على صورة بشر، وكل ما جاء من ذلك فهو من وحي السنة، وليس من وحي القرآن الكريم. ولعل في ذلك حكمة عظيمة، إذ أنه لو نزل شيء من القرآن في حالة تصور جبريل عليه السلام على هيئة بشر لكان في هذا مدخل للشك والتدليس، ولوجد المشركون سنداً لزعمهم في قولهم الذي حكاه القرآن: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) [النحل:103]. ولذلك نصّ القرآن الكريم على أنّ الوحي بالقرآن الكريم كان بواسطة جبريل . أي وليس بأي صورة أخرى من صور الوحي . وذلك في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء:192-195].

وفي قوله تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) [النحل:102].
ووجه الاستدلال على أنّ جبريل كان ينزل بصورته الملائكية هو التنصيص على أنّ مناط هذا النزول ومحله هو قلب النبي الكريم ﷺ.

4_ الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوي:

القرآن الكريم: كلام الله أوحى به إلى رسول الله بلفظه، وتحدى به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله ولا يزال التحدي به قائماً، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين.

الحديث القدسي: هو ما يخبر به الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ولفظه ومعناه من الله، ولكن يُسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

الحديث النبوي: هو ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، ويكون لفظه ومعناه من النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن مضمونه وحي من الله تعالى.

ويتجلّى الفرق بينهم فيما يلي:

- 1-القرآن الكريم: معجز ولو بسورة أو آية بخلاف الحديث القدسي فليس بمعجز.
- 2-القرآن الكريم: منقول بطريق التواتر ويكفر من جحد شيئاً منه، أما الحديث القدسي فأغلبه ظني وعلى ذلك لا يكفر من جحد غير المتواتر.
- 3-القرآن الكريم: من عند الله لفظاً ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من عند الله وأما لفظه فمختلف فيه.
- 4-القرآن الكريم: لا ينسب إلا إلى الله، بينما الحديث القدسي فينسب إلى قائله (نسبة إخبار).
- 5-القرآن الكريم: تحرم روايته بالمعنى، أما القدسي فلا تحرم.
- 6-القرآن الكريم: الجملة منه تسمى آية والجملة من الآيات تسمى سورة.
- 7-القرآن الكريم: نبدأ به بالاستعاذة والبسملة بخلاف الحديث القدسي.
- 8-القرآن الكريم: يكتب بطريقته الخاصة، بخلاف الحديث القدسي.

ثانيا: نزول القرآن الكريم:

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد -صلى الله عليه وسلم- لهداية البشرية، فكان نزوله حدثا جللا يؤذن بمكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض، فأما إنزاله الأول في ليلة القدر فقد أشعر العالم العلوي من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التي أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أخرجت للناس، وأما تنزيله الثاني مفرقا على خلاف المعهود في إنزال الكتب السماوية قبله فقد أثار الدهشة التي حملت القوم على المماراة فيه، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية ، فلم يكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلف وعناد، فكان الوحي يتنزل عليه تباعا تثبيتا لقلبه، وتسلية له، وتدرجا مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين، وأتم النعمة. والقرآن الكريم تميّز بنوعين من أنواع النزول¹:

الأول: نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

الثاني: نزول القرآن منجماً على قلب النبي ﷺ.

ولكلّ نزول أدلته وحكمته، كما سيأتي بيانه:

1_ نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا:

¹ للعلماء في ذلك مذاهب شتى، مجملها كالاتي:

المذهب الأول: وهو الذي قال به ابن عباس وجماعة، وعليه جمهور العلماء: أنّ المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث -إنا أنزلناه- نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيماً لشأنه عند ملائكته، ثم نزل بعد ذلك منجماً على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه.

المذهب الثاني: روي عن الشعبي: أنّ المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرّجا مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ هذا هو الذي جاء به القرآن: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) [الإسراء:106].

المذهب الثالث: يرى أنّ القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر، ففي كل ليلة منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة، ينزل بعد ذلك منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع السنة. وهذا المذهب اجتهد من بعض المفسرين، ولا دليل عليه.

المذهب الرابع: يرى بعض العلماء أنّ القرآن نزل أولاً جملة إلى اللوح المحفوظ، مستدلاً بقوله تعالى: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) [البروج:21-22]. ثم نزل من اللوح المحفوظ جملة كذلك إلى بيت العزة، ثم نزل مفرّقا، فهذه تنزلات ثلاثة.

نزل القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وهنالك عدد من الأدلة التي ساقها العلماء لإثبات هذا النوع من النزول، من أبرزها:

- قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) [البقرة: 185].

- وقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ) [الدخان: 3].

- وقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) [القدر: 1].

ومن المعلوم أنَّ القرآن لم ينزل على النبي ﷺ في شهر واحد وهو شهر رمضان؛ وإنما نزل فيه وفي غيره من الشهور، كما أنَّه لم ينزل في ليلة واحدة، وإنما نزل في عدد من الليالي والأيام، وبالليل والنهار، والصيف والشتاء، فقالوا إنَّ هذه الآيات تتحدث عن نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا؛ بدليل الآثار التي جاءت توضح ذلك، ومنها:

1. ما جاء عن عكرمة عن ابن عباس ؓ أنه قال: "أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً".

2 - وفي رواية أخرى عن ابن عباس ؓ أنه قال: "فُصِّلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوْضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُنْزِلُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُرْتِّلُهُ تَرْتِيلًا".

3 - روى الإمام أحمد من حديث وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْفَعِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضْيَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثِ عَشْرَةٍ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ".

وهذه الأدلة وغيرها تثبت نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ، فَأُنْزِلَ فِيهَا جُمْلَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أُنْزِلَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ إِلَى الْأَرْضِ.

2- نزول القرآن منجماً على قلب النبي ﷺ:

وهذا النوع من النزول قد تضافرت عليه الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، والتي تثبت نزول القرآن عليه ﷺ منجماً، ومن ذلك:

- قوله تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) [الإسراء:106].

- وقوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان:32].

وعن ابن عباس أنه قرأ: "فَرَقْنَاهُ" بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية، مبيّناً، ومفسراً.

كما أنّ الأدلة الكثيرة المتضافرة في السنة النبوية التي توضح كيفية نزول جبريل بالقرآن الكريم لآياته وسوره تقطع الشك في نزوله منجماً على قلبه، وأنّ النبي ﷺ سمعه من جبريل بأذنيه، ووعاه بقلبه، وبلغه للناس كما سمعه.

3_ الحكمة من نزول القرآن منجماً على النبي ﷺ:

لنزول القرآن الكريم منجماً على قلب النبي ﷺ في بضع وعشرين سنة حكم كثيرة منها ما نصّ عليه القرآن الكريم أو السنة النبوية، ومنها ما استنبطه العلماء، وما زال المجال واسعاً أمام الباحثين لاستنباط المزيد من الحكم، وإليك الحديث عن بعضها:

3_1_ تثبيت فؤاد النبي ﷺ:

هذه الحكمة قد نصّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان:32]، يعني لنقوي به قلبك، فإنّ الوحي إذا كان يتجدد في كلّ حادثة كان أقوى للقلب، وأشدّ عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناح العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة.

3_2_ ردّ شبه الكفار والإجابة عن أسئلة السائلين:

وقد هذا قد جاء في قوله تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) [الفرقان:33]، أي: لا يأتونك بحجة أو شبهة، ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا جئناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم، فأخبره الله أن يجيبهم بأنّ أحكام الله لا تتبع أهواء البشر، وأنه لا يملك من الأمر شيئاً، وإتّما هو مبلّغ ما يُوحى إليه.

3_3_ فضح مكائد الأعداء في حينها:

3_4_ مسامرة الحوادث في عهد النبوة:

3_5_ التدرّج ومراعاة الأولويات في التربية والتعليم:

26

فالتخلي عن الباطل يحتاج إلى تدرج، كما أنّ التحليّ بالحق يحتاج إلى فقه واسع في التدرّج حتى تبلغ النفوس البشرية مبلغاً في الكمال الذي يريده الله تعالى، ولا بدّ أن يكون التدرج وفق منهج الأولويات، ومن هنا بدأ الإسلام في تربيتهم بقضايا الإيمان وأصول الأخلاق ثم تدرج في فرض العبادات ابتداءً بالصلاة ثم الصيام ثم الزكاة ثم الحج، وتدرّج معهم في فضائل الإسلام وشعائره الأخرى، فلو نزلت الفرائض جملة لثقل على قلوبهم تقبلها، ولذلك أنزله الله وفق علمه وحكمته بما يصلح مع نفوس البشر، ومثال ذلك آيات التدرج في تحريم الخمر.

3_6_ تحقيق اليقين على أنّ القرآن الكريم كلام رب العالمين:

فالقرآن الكريم من خلال نزوله آيات يدل على أنه من عند الله العزيز الحكيم؛ وذلك من خلال التتبع لما نزل أولاً وما نزل آخرًا، وما بينهما، في بضع وعشرين سنة، وفي أماكن مختلفة، وأزمنة متباينة، وأحوال متنوعة، لكننا لا نجد فيه اختلافًا بين آياته، وكلماته، وحروفه، فألفاظه متشابهة، ومعانيه محكمة، وأسلوبه كله فريد متناسق لا اختلاف فيه ولا تضاد، كما قال تعالى: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء: 82].

4_ أول ما نزل وآخر ما نزل:

اعتنى العلماء عناية خاصة بأول القرآن نزولاً، وآخر ما نزل منه، كما اعتنوا بأول ما نزل في مكة، وآخر ما نزل فيها، وأول ما نزل في المدينة وآخر ما نزل فيها، وأول ما نزل في كلِّ حكم، وآخر ما نزل فيه، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

4_1_ أول ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم إلى عدّة أقوال أشهرها:

القول الأول: أنّ أول ما نزل من القرآن صدر سورة اقرأ، وهذا القول رجحه جمهور العلماء من السلف والخلف، وتسنده الأدلة الواضحة من ذلك ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بَعَارٍ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِدَلِكِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى حَدِيحَةٍ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ حِرَاءٍ،

فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [العلق: 1-5]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فُؤَادُهُ".

وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول سورة نزلت من القرآن (سورة اقرأ)". ومرادها بالسورة الآيات الخمس الأولى منها.

القول الثاني:

ذهب طائفة من العلماء إلى أنّ أول ما نزل من القرآن سورة المدثر، فقد روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: "سألت جابر بن عبد الله، أي القرآن أنزل قبل؟ قال: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)". والقول الأول أرجح من الثاني وذلك لأدلة كثيرة، منها:

- ما أجاب به السيوطي في الإتيان عن الحديث الذي استدل به أصحاب القول الثاني:
- قد ثبت في الصحيحين عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: بينما أنا امشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض. ثم طلب النبي ﷺ أن يُرملوه، وبعدها نزلت سورة المدثر.
- أنّ مراد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما إنّما هو فيما نزل سورة كاملة، ذلك أنّ المدثر اكتمل نزولها قبل سورة اقرأ، التي نزل منها صدر السورة فقط.
- أنّ مراد جابر يتعلّق بأوليّة الإنذار، لا مطلق الإنباء، فمن المعلوم أنّ سورة المدثر: نزلت أمرة النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطلق داعية إلى الله منذراً أهل الشرك والضلالة مغبة ما هم فيه من عبادة الأوثان وتقديس الأصنام. وأما سورة العلق فلم يكن فيها شيء من ذلك، بل هو مجرد الإنباء والتهئية لتلقي رسالة السماء.

القول الثالث:

ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ أول ما نزل من القرآن هو سورة الفاتحة، ودليلهم ما رواه البيهقي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحديجة: "إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً"، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فو الله إنك لتؤذي الأمانة وتصل الرحم، وتصدق الحديث". فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: "اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه، فقال: "إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد! فانطلق هاربا في الأفق، فقال: لا تفعل، إذا أتاك ما ثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد قل: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* ... وَلَا الضَّالِّينَ) والحديث مرسل رواه ثقات.

- والحديث وإن كان رجاله ثقات إلا أنه مرسل لا يقوى على معارضة حديث عائشة، بل نقل الزركشي في "البرهان" عن القاضي أبي بكر في "الانتصار" أن هذا الخبر منقطع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن البيهقي قال عنه: إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها -أي الفاتحة- بعدما نزلت عليه: (اقرأ).

القول الرابع:

ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ أول ما نزل من القرآن هو البسملة، ودليلهم: ما أخرجه الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن قالا: "إنّ أول ما نزل من القرآن: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وأوّل سورة: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

- وهذا الحديث لا يحتج به أمام حديث عائشة في الصحيحين.

وأصح الأقوال وأولها هو القول الأول في أنّ أول ما نزل من القرآن بإطلاق هو قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

4_2_ آخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء في ذلك أيضاً إلى أقوال عديدة، منها:

القول الأول: آخر ما نزل هو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [البقرة: 278]. فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها آخر آية نزلت (آية الربا).

القول الثاني: أن آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [البقرة: 281]. وقد وردت روايات كثيرة عن ابن عباس توضح ذلك.

القول الثالث: أن آخر آية نزلت هي آية الدين للأثر الوارد عن ابن عباس قال آخر القرآن عهدا بالعرش آية الدين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: 282].

والظاهر من هذه الأقوال الثلاثة أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، خاصة وأنها في قصة واحدة، فأخبر كلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل وذلك صحيح من هذه الجهة، ومن جهة قرب نزولها من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القول الرابع: أن آخر ما نزل هو قوله تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) [النساء: 176]، فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال: "آخر آية نزلت: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ)".

القول الخامس: إن آخر ما نزل قوله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) [النساء: 93]، فقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: "نزلت هذه الآية: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا)، وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء".

القول السادس: إنّ آخر ما نزل سورة المائدة، وهو مروي عن عائشة وغيرها. فقد روى الترمذي عن عائشة، وعبد الله بن عمرو قولهما: "آخر ما نزل: سورة المائدة".

القول السابع: إنّ آخر ما نزل سورة النصر. فقد أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: "آخر سورة أنزلت: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إلى آخرها".

القول الثامن: إنّ آخر ما نزل هو قوله: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:3]، فقد روى البخاري ومسلم في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أنّ رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)، قال عمر: "قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة".

وهذه الآية نزلت في إكمال الدين والشرائع في حجة الوداع وليس في جانب إكمال القرآن الكريم.

*ومن أحسن ما قيل في هذا الاختلاف:

- هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
- يجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن.
- يحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل.
- يحتمل أن تنزل هذه الآية -التي هي آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه وسلم- مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب.

4_3_ فوائده معرفة أول وآخر ما نزل:

لمعرفة أول وآخر ما نزل فوائده عديدة، منها:

- أ- معرفة تدرج القرآن في النزول، وما الأمور التي نزل بشأنها الوحي أولاً، وذلك للاستفادة منها في العلم والدعوة، وترتيب سلم الأولويات في حياة العلماء والدعاة.

ب- معرفة الناسخ والمنسوخ من الأحكام والتشريعات.

ج- ضبط ورصد كل ما يتعلق بالقرآن الكريم، لما له من المنزلة العظيمة في النفوس والقلوب.

المحاضرة الثالثة: جمع القرآن وتدوينه

المراد بجمع القرآن الكريم حفظه في الصدور وكتابته في السطور، وقد تحقق جمع القرآن بنوعيه حفظا وكتابة في جميع العهود.

ففي عهد النبي صلى الله عليه وسلم تواتر حفظه في الصدور، كما تمت كتابته، كلما نزلت آية من الآيات دعا من يكتب.

وفي عهد أبي بكر جمع أوراق القرآن وما كتب في مكان واحد.

وقد تجوز العلماء في إطلاق جمع القرآن في عهد عثمان الذي أمر بكتابته ونسخه.

وما زال جمع القرآن - حفظا وكتابة - محققا وسيبقى كذلك إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم: (إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9].

1_ الجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

ففي عهد النبي صلى الله عليه وسلم تواتر حفظه في الصدور، كما تمت كتابته كلما نزلت آية من الآيات دعا من يكتب. وكان عدد الحفاظ من الصحابة رضوان الله عليهم كثيرا، أشهرهم الخلفاء الأربعة والعبادلة وعمرو بن العاص وابن الزبير ومعاوية وأمّهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة، وغيرهم من المهاجرين، ويكفي أن نعلم من كثرتهم أنه قتل منهم في يوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة ضعفهم أي أربعون ومائة.

أما الحفظة من الأنصار فهم كثيرون، أشهرهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن ثابت، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري...

هذا عن جمع القرآن حفظا وتلاوة، أما الجمع بمعنى كتابة القرآن وتدوينه فلم تكن عناية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بحفظ القرآن واستظهاره لتمكنهم من توثيق القرآن بكتابته وتدوينه، فقد اتخذ الرسول

صلى الله عليه وسلم من أصحابه كتبة للوحي، منهم زيد بن ثابت وعمر وعثمان وعلي وأبي بن كعب وثابت بن قيس وخالد بن الوليد، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من حضر منهم بالكتابة لما ينزل عليه من القرآن، فيكتب الكاتب: إما على العصب أو اللخاف أو الرقاع أو قطع الأديم أو عظام الأكتاف والأضلاع، ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مجموعاً في صحف قال تعالى: "رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً".

وروي عن ابن عباس أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب، فقال: "ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا".

وعن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع.

لكن المقصود هو ما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح: "المراد بالجمع هنا جمع مخصوص: وهو جمع متفرقه في صحف، ثم جمع تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور".

والوحي قد كان له كتاب أبي والأربعة الأحاباب

وزيد والزبير والمغيره حنظلة وخالد العشيره

معاوية وعامر يزيد وعمر و ثم ثابت وزيد

وسائل وأدوات الجمع والكتابة:

جمع القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على وسائل ميسرة وبسيطة فقد كتبوه على عدة أدوات، منها:

1-العصب: وهي ورق أو جريد النخيل

2-واللخاف: وهي الحجارة الرقيقة

3-والرقاع: وهي قطع من الجلد أو الورق

4-والأقتاب: وهي قطع خشبية

5-الكرانيف: وهي أطراف العشب



مميزات هذا الجمع:

1-"كتب القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على الأحرف السبعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه.

2-"أجمع العلماء على أن جمع القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان مرتب الآيات واختلفوا في ترتيب السور.

3- "بعض ما كتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم نسخت تلاوته وظل مكتوباً" حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، منها قالت عائشة: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخت بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن.

4- لم يكن القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مجموعاً في مصحف واحد.

سؤال: لماذا لم يجمع المصحف في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟

الجواب:

الاعتبارات التي كانت سبباً في عدم جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

أ- أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه صحفاً، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصحف.

ب- أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات فلما انقضى نزوله بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم شرع الخلفاء في جمعه.

ج- بسبب كثرة حفظه من قبل الصحابة، والنبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمن صلى الله عليه وسلم من نسيانه، قال تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى* إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) [الأعلى: 5-6]

د- أنّ القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر.

هـ- أنّ ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله، فنزوله كان على حسب الأسباب، وأما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات، فلو جمع في صحف أو مصحف لكان عرضة للتغيير كلما وقع نسخ أو حدث سبب.

هـ- قلة الوسائل والأدوات، والعصر كان عصر حفظ وليس عصر كتابة وتدوين.

سؤال: هل صحيح أنه قد ورد حصر حفظة القرآن على عهده صلى الله عليه وسلم: في 3 أو 4 أو 7 صحابة فقط؟

الجواب: نعم، ولكن لذلك تفسير، فقد ذكر البخاري ثلاث روايات في حصر عدد الصحابة الذين حفظوا القرآن، وهي:

الرواية الأولى: ذكر عبد الله عند عبد الله بن عمرو فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعدما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "استقرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود فبدأ به وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل".

الرواية الثانية: رواية أنس وفيها أنه قال: مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ونحن ورثناه".

الرواية الثالثة: عن أنس أيضا قال: جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار: أبي ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد بن ثابت، قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال أحد عمومي".

لكن قد ذكر الحافظ ابن حجر والسيوطي وغيرهما أن الروايات لا تفيد الحصر، وكذلك بالنسبة لرواية أنس في تحديد الأربعة الأنصار أنها كانت قيد المفاخرة بين الحيين.

وذكر الإمام النووي في شرح هذه الأحاديث سبب هذا التخصيص بقوله: "أن هؤلاء أكثر ضبطا لألفاظه، وأتقن لأدائه. أو لأن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأخذه منه صلى الله عليه وسلم مشافهة، وغيرهم اقتصروا على أخذ بعضهم من بعض. أو لأن هؤلاء تفرغوا لأن يؤخذ عنهم، أو أنه صلى الله عليه وسلم أراد الإعلام بما يكون بعد وفاته من تقدم هؤلاء الأربعة وتمكنهم فهم أقعد من غيرهم في ذلك فليؤخذ عنهم".

والجمع إذن جمعان: جمع في الصدور بمعنى حفظه، وجمع في السطور أو في الكتب.

- فالأول: الجمع في الصدور: وهو تيسير حفظه للناس في صدورهم.
- والثاني: الجمع في السطور، وقد تم بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم على مرحلتين: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

2_ جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لم يشعر الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أنهم في حاجة إلى جمع القرآن في كتاب واحد، حتى كثر القتل في الحفاظ في حروب الردة، فقد استشهد فيها خلق كثير من القراء والحفظة، قيل إنه قتل سبعون وقيل خمسمائة، وأيًا كان فإنّ عدد القتلى قد هال المسلمين، فخشي عمر بن الخطاب من ذلك على ضياع بعض الصحف، ففكر في عرض الأمر على أبي بكر ليقوم بجمع القرآن الكريم.

روى البخاري أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنّ عمر أتاني فقال: إنّ القتل قد استحر (اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير؛ فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني، حتى شُرح صدري للذي شُرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدّها مع أحد غيره: (لَقَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ².

وكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند عمر في حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.



² وفيه رواية أخرى عن خارجة بن زيد أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (نُسِخَتِ الصحفُ في المصاحف، ففقدتُ آيةً من سورة الأحزاب كنتُ أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته شهادة رجلين، وهو قوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} (الأحزاب: 23)) رواه البخاري.

أسباب اختيار زيد بن ثابت³:

- 1- أنه كان من حفاظ القرآن الكريم فكان يحفظه عن ظهر قلب.
- 2- أنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم⁴.
- 3- أنه من كتاب الوحي⁵.
- 4- خصوبة عقله وشدة ورعه وكمال خلقه وأمانته وغيرها من الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها رضي الله عنه.

³ أول مشاهدته غزوة الخندق -أو الأحزاب-، وكان ينقل التراب مع المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمَا إِنَّهُ نِعَمَ الْعُلَامِ»، وكانت رايته بني مالك بن النَجَّارِ يوم "تبوك" مع عُمارة بن حزم رضي الله عنه، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفعها إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه، فقال عُمارة: يا رسول الله، بَلَعَكَ عَيِّي شَيْءٌ؟ قال: «لَا، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يُقَدِّمُ، وَكَانَ زَيْدٌ أَكْثَرَ أَخْذًا مِنْكَ لِلْقُرْآنِ»، رواه الحاكم في "المستدرک".

وكان رضي الله عنه أحد الأذكياء، فقد تعلم عدة لغات منها السريانية؛ حيث أمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعلم السُريانيَّة - لغة اليهود-؛ ليقرا له كتبهم، وقال له: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ»، قال: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ (أي كتاب اليهود)، قال: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ. رواه الترمذي. وقد أشاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعلمه بالمواريث فقال: «أَفَرَضُ أُمَّتِي زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ» رواه الحاكم في "المستدرک"، أي: أعلمهم بعلم الفرائض أو المواريث، وعن سليمان بن يسار رضي الله عنه، قال: "ما كان عمر، وعثمان يُقَدِّمَانِ عَلَى زَيْدٍ أَخْذًا فِي الْفَرَائِضِ، وَالْفَتَوَى، وَالْقِرَاءَةِ، وَالْقَضَاءِ".

⁴ وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: قرأ زيد بن ثابت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت؛ لأنه كتبها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يُقَرَأُ النَّاسَ بِهَا حَتَّى مَاتَ؛ وَلِذَلِكَ اعْتَمَدَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي جَمْعِهِ، وَوَلَّاهُ عُثْمَانُ كِتَابَةَ الْمُصَاحِفِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

⁵ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: «كَنتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ بُرْخَاءُ شَدِيدَةً، وَعَرَقَ عَرَقًا شَدِيدًا مِثْلَ الْجُمَانِ، ثُمَّ سَرِيَّ عَنْهُ، فَكَنتُ أَدْخُلُ عَلَيْهِ بِقِطْعَةِ الْكَتِفِ أَوْ كِسْرَةٍ، فَأَكْتُبُ وَهُوَ يُجَلِّي عَلَيَّ، فَمَا أَفْرَغُ حَتَّى تَكَادَ رِجْلِي تَنْكَسِرُ مِنْ ثِقَلِ الْقُرْآنِ، وَحَتَّى أَقُولَ: لَا أَمْشِي عَلَى رِجْلِي أَبَدًا، فَإِذَا فَرِغْتُ، قَالَ: (اقْرَأْهُ)، فَأَقْرُؤُهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ سَقَطٌ أَقَامَهُ، ثُمَّ أَخْرَجَ بِهِ إِلَى النَّاسِ»

منهج زيد بن ثابت في الجمع:

1- كان زيد بن ثابت يحفظ القرآن كله في صدره، وكان القرآن مكتوبا عنده، وقرأ القرآن مرتين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع هذا لم يعتمد على حفظه، ولا على ما هو مكتوب عنده، فقد سار على منهج رصين يقول زيد: "فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخاف وصدور الرجال".

2- يجمع ما كان محفوظا في صدور الصحابة، ولا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقوه من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة.

3- لا يقبل شيئا من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ميزات هذا الجمع:

1- جمع القرآن الكريم في هذا العهد على أدق وجوه التحري والإتقان وحظي هذا الجمع على إجماع الأمة عليه.

2- أهمل في هذا الجمع ما نسخت تلاوته من الآيات.

3- هذا الجمع أثبت فيه ما جاء في العرضة الأخيرة.

4- أجمع العلماء على أنّ هذا الجمع كانت الآيات فيه مرتبة، واختلفوا في السور هل كانت مرتبة أم رتب في عهد عثمان رضي الله عنه.

5- اتفق العلماء على أنه كتبت نسخة واحدة من القرآن حفظها أبو بكر رضي الله عنه.

6- أبو بكر رضي الله عنه لم يلزم الناس باتباع هذا المصحف الذي جمعه.

مكانة هذا الجمع:

أجمع الصحابة على صحة هذا الجمع ووقته وسلامته من الزيادة والنقصان وتلقوه بالقبول والعناية قال علي رضي الله عنه: "أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر فإنه أول من جمع ما بين اللوحين".

وهنا في هذا العصر ظهرت تسمية المصحف للقرآن الكريم، وبقي هذا المصحف عند أبي بكر الصديق حتى وفاته، ثم انتقل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حتى وفاته، ثم انتقل إلى ابنته حفصة أم المؤمنين ثم بقي عند حفصة إلى أن طلبه عثمان رضي الله عنه لنسخه، بعد ذلك أعاده إليها، ولما توفيت حفصة أرسل مروان بن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر رضي الله عنه لأن يأتي به، فأتي به إلى مروان فمزقه خشية أن يقع خلاف بينه وبين ما نسخ عثمان ابن عفان رضي الله عنه.

3_ الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه:

لئن كان جمع أبي بكر للقرآن خوفا من ضياع المکتوب بموت حفظة القرآن، فإن جمع عثمان بن عفان كان خوفا من اختلاف الأمصار في وجوه القراءات، حين قرأه كل مصر بقراءة تختلف عن قراءة مصر آخر، وأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضا، وفي قصة حذيفة بن اليمان التي ستأتي خير بيان لأسباب الجمع أو النسخ بتعبير أصح.

فعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية في البلاد، وانتشر الصحابة يعلمون الناس القرآن وأمور الدين، كان كل صحابي يقرأ بما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أهل الشام يقرؤون بقراءة أبي ابن كعب، وأهل العراق يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتي أهل الشام بما لا يأتي به أهل العراق، وكذلك العكس، وهذا ما أدى إلى الاختلاف وإلى النزاع والشقاق بينهم، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه حيث أعلمه حذيفة بما يحدث بالأمصار، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك: أنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام مع أهل العراق في فتح أرمينيا فأفرع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة

لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها بالمصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم".

وبعد أن أكمل عثمان عملية الجمع (النسخ)، أرسل النسخ إلى الأمصار⁶ وأرسل مع كل نسخة قارئ بنفس القراءة التي أرسلها، مثلاً: أمر زيد بن ثابت أن يقرأ بالمديني، والمغيرة بن أبي شهاب بالشامي، وعبد الرحمن السلمي بالكوفي، وعبد الله بن السائب بالمكي، وعامر بن عبد القيس بالبصري... وهكذا، ثم أمر عثمان بجمع كل ما عدا هذه النسخ وأمر بحرقها، وألزم الناس باتباع المصحف الإمام -وهو ما يسمى بالمصحف العثماني أي: المرسوم بالرسم العثماني-. والذي كتبه ونسخه بعد إجماع الصحابة ومشورتهم بذلك، ووافق الصحابة عثمان على هذا الفعل وأجمعوا على قبول ذلك.

قال زيد بن ثابت: فرأيت أصحاب محمد يقولون: "أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان، وقال علي رضي الله عنه: "لولا صنعه عثمان لصنعتة".

لجنة النسخ:

اختار عثمان رضي الله عنه أربعة لنسخ المصحف، وهم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث.

⁶ اختلف العلماء في عدد النسخ، فمنهم من قال أربعة، ومنهم من قال خمسة، ومنهم من قال ستة، ومنهم من قال سبعة، ومنهم من قال ثمانية. وقد أرسلت إلى: الشام والكوفة والبصرة ومكة والمدينة، واحتفظ بنسخة لنفسه رضي الله عنه، ثم رد نسخة حفصة رضي الله عنها. ثم توفيت حفصة رضي الله عنها وأحرقها مروان بن الحكم لئلا تختلط فيما بعد بالمصحف الذي أجمع عليه الناس.

واتخذ عثمان نهجا في نسخ القرآن الكريم:

1- خطب في الناس وبين لهم أسباب الجمع وطلب منهم بأن يأتي كل واحد بما عنده من الصحف التي كتب عليها القرآن.

2- أرسل عثمان إلى حفصة أن ترسل إليه مصحف أبي بكر.

3- كلف زيد وأصحابه بنسخ المصاحف منها، وقال لهم إن اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش.

4- أمرهم أن يرسموا الكلمات بحيث تحتمل القراءات التي قرأ بها القرآن، مثال: ملك وليس مالك.

مميزات هذا الجمع:

تميز هذا الجمع بمزايا عديدة، من أهمها:

1- كُتب القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة وهو حرف قريش، وقد كتب مجردا حتى يحتمل أحرفا أخرى، فإن لم يحتمل إلا حرفا واحدا كتب بلغة قريش.

2- إهمال ما نُسخت تلاوته.

3 -الاقتصار على القراءات الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم التي جاءت في العرصة الأخيرة.

4- كان هذا النسخ لما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته.

5- رُتبت الآيات والصور على الوجه المعروف الآن.

6- جمعت هذه الصحف بين دفتين.

المحاضرة الرابعة: علم المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول ﷺ قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية وأقام فيها إلى وفاته ﷺ.

وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار والقرى والجبال والوهاد والأودية والسهول والدور والبراري وفي أوقات مختلفة في الليل والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلم، والحرب. وقد اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية واستيفاء معانيها واستقصاء مدلولاتها.

-وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمون قلة، وكان المشركون كثرة وللحديث مع الكفار أسلوبه ولمخاطبة المسلمين طريقته.

فالقرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويرفق بهم وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحجة والدليل ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار وظل القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم وأنشأ جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول ﷺ بهذه الجماعة والتقى بجماعة أخرى من المسلمين في المدينة، وأخى بين الجماعتين ومزج بينهما مزجاً كان نتاجه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة والمؤهلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة ييسر أحكام الدين، ويرسي قواعده ويبيّن المجتمع الإسلامي ويؤسس صرح الدولة.

وبلا ريب أن معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف ولتلك الأهداف والأغراض ومعرفة ما نزل في المدينة، كذلك يعطى منهجاً سليماً للدعوة الإسلامية ودروساً للدعاة في مختلف العصور والأمكنة.

❖ عناية العلماء بالمكي والمدني:

فلا عجب إذا أن يعتني العلماء بذلك وأن يولوه اهتمامهم، فهذا علي بن أبي طالب عليه السلام قال: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤللاً". وكان علي بن أبي طالب يقول على المنبر: "سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بالنهار، أي سهل أم في جبل". وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه".

وتظهر أهميته من فوائده المتعددة، ونذكر منها ما يلي:

- تمييز الناسخ من المنسوخ، نظراً إلى تأخر المدني عن المكي.

- أنه يعين الدارس على معرفة تاريخ التشريع، والوقوف على سنة الله الحكيمة في تشريعه، بتقديم الأصول على الفروع، وترسيخ الأسس الفكرية والنفسية، ثم بناء الأحكام والأوامر والنواهي عليها، مما كان له الأثر الكبير في تلقي الدعوة الإسلامية بالقبول.

- الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف، واهتمام المسلمين به وبعلمه خير دليل على ذلك.

- حرص السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم وجهدهم الكبير في الحرص على المكي والمدني.

- تحصيل الفهم الصحيح لآيات القرآن وسوره، لأن معرفة تاريخ النزول وظرف الآيات يساعد على فهمها وإدراك مقاصدها، فقطع النصوص عن سياقها الزماني أو المكاني يضيع سبيل الفهم السليم.

- تذوق أساليب القرآن الكريم، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة.

- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية الكريمة.

❖ الخلاف في اعتبار المكي والمدني:

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:



-**القول الأول:** اعتبار المكان، أي أن ما نزل من السور والآيات بمكة وضواحيها، فهو مكّي، وما نزل بالمدينة وضواحيها، فهو مدني. وضعف هذا القول من ضعفه من أهل العلم، لأن ضابط اعتبار المكان فيه قصور، كقوله تعالى: {وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ} [التوبة:42]، فإنه نزل بنبوك.

-**القول الثاني:** اعتبار الزمان، أي أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكّي، وما نزل بعدها فهو مدني، وهو الصحيح المشهور.

فمثلاً قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا} نزلت يوم الفتح بمكة، وتعتبر هذه الآية مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة.



وقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة:3]. نزلت بعرفة، وتعتبر هذه الآية أيضاً مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة.

- **القول الثالث:** اعتبار المخاطب، وهو أن ما كان فيه الخطاب ب: "يا أيها الذين آمنوا" فإنه مدني وما وقع الخطاب فيه ب: "يا أيها الناس" فإنه مكّي .

القرآن المكي والمدني



ويرد على هذا القول أمران:

- الأول: أن في القرآن ما نزل غير مصدر بأحدهما نحو: "يا أيها النبي اتق الله" وفيه من السور ما لم يتضمن أي النداءين.

- الثاني: أن هذا الضابط غير مطرد فهناك آيات مدنية صدرت ب: "يا أيها الناس" والعكس كالنساء فأولها وهي مدنية "يا أيها الناس"، والبقرة مدنية وفيها "يا أيها الناس" وسورة الحج مكية وفيها "يا أيها الذين آمنوا".

❖ تحديد العلماء للسور المدنية والمكية⁷:

أجمع العلماء على تحديد معظم السور لكن اختلفوا في بعضها، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

- عشرون -20- سورة مدنية.
- واثنان وثمانون -82- سورة مكية.
- واثنى عشر -12- سورة اختلفوا فيها.

السور المدنية: -20-

وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، والنصر.

السور المختلف فيها: -12-

وهي: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، والناس.

السور المكية: اثنان وثمانون -82-، وهي التي لم تذكر أعلاه.

ضبط هذه السور: يكون من خلال:

1- نظم السور المدنيّة:

مَا جَاءَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ بَعْدُ يَا ذَكِيَّ
وَعَدُّهَا سِتُّ وَعِشْرُونَ وَذَا بَيَّأُهَا أَطَالِبُ الْعِلْمِ حُذَا
بَقَرَةُ آلِ نِسَاءٍ وَالْمَائِدَةِ أَنْفَالُ التَّوْبَةِ بَعْدُ وَارِدَهُ
وَالنُّورُ وَالْأَحْزَابُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَالْفَتْحُ ثُمَّ الْحُجُرَاتُ أَوْجِدِ

⁷ لا يقصد بوصف السورة مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية، وفي المدنية بعض آيات مكية. ولذلك نجد مثلاً قول العلماء: سورة كذا مكية وسورة كذا مدنية إلا آية كذا وكذا.

وَسُورَةُ الْحَدِيدِ عُدَّ بَعْدَهَا تَسَعًا عَلَى التَّرْتِيبِ وَاضْبِطَ عَدَّهَا
بَيِّنَةُ زَلْزَلَةٍ وَالنَّصْرُ وَفَلَقَ وَالنَّاسُ تَمَّ الْحَصْرُ

ومثلها ما نقله السيوطي عن أبي الحسن بن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ: المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشر سورة وما عدا ذلك مكى باتفاق. ثم نظم في ذلك نظماً:
يا سائلي عن كتاب الله مجتهدا ... وعن ترتب ما يتلى من السور
وكيف جاء بها المختار من مضر ... صلى الإله على المختار من مضر
وما تقدم منها قبل هجرته ... وما تأخر في بدو وفي حضر
ليعلم النسخ والتخصيص مجتهد ... يؤيد الحكم بالتاريخ والنظر
تعارض النقل في أم الكتاب وقد ... تؤولت الحجر تنبيهاً لمعتبر
أم القرآن وفي أم القرى نزلت ... ما كان للخمس قبل الحمد من أثر
وبعد هجرة خير الناس قد نزلت ... عشرون من سور القرآن في عشر
فأربع من طوال السبع أولها ... وخامس الخمس في الأنفال ذي العبر
وتوبة الله إن عدت فسادسة ... وسورة النور والأحزاب ذي الذكر
وسورة لني الله محكمة ... والفتح والحجرات الغر في غرر
ثم الحديد ويتلوها مجادلة ... والحشر ثم امتحان الله للبشر
وسورة فضح الله النفاق بها ... وسورة الجمع تذكاري لمذكر
وللطلاق وللتحريم حكمهما ... والنصر والفتح تنبيهاً على العمر
هذا الذي اتفقت فيه الرواة له ... وقد تعارضت الأخبار في آخر
فالرعد مختلف فيها متى نزلت ... وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر
ومثلها سورة الرحمن شاهدها ... مما تضمن قول الجن في الخبر
وسورة للحواريين قد علمت ... ثم التغابن والتطفييف ذو النذر
وليلة القدر قد خصت بملتنا ... ولم يكن بعدها الزلزال فاعتبر
وقل هو الله من أوصاف خالقنا ... وعودتان ترد البأس بالقدر
وذا الذي اختلفت فيه الرواة له ... وربما استثنيت آي من السور

وما سوى ذاك مكّي تنزله ... فلا تكن من خلاف الناس في حصر
فليس كل خلاف جاء معتبرا ... إلا خلاف له حظ من النظر

2- ضوابط اجتهادية: تذكر عدد آيات سورة البقرة الذي هو: 286.

فعدد السور المكية هو: 86

وعدد السور المدنية هو: 28

ومجموع (28+86=114) هو عدد سور القرآن الكريم.

❖ أسباب الاختلاف في تعيين المكّي والمدني:

من أهم الأسباب ما يلي:

- أنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في هذا الأمر.
- الاختلاف بين العلماء في تحديد مصطلح المكّي والمدني.
- عدم التمييز بين ما هو صريح في السببية وما هو غير صريح فيها.
- الاعتماد على قطعية بعض الضوابط وخصائص المكّي والمدني.
- اعتماد الروايات الضعيفة التي لا ترتقي إلى مستوى الاحتجاج.

❖ طريق معرفة المكّي والمدني:

يعرف المكّي والمدني بأحد طريقين:

● الطريق الأول: النقل السماعي:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكّية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي ﷺ فلم يرد عنه بيان للسور المكية والسور المدنية؛ لأن هذا مما يشاهده ويحضره الصحابة ﷺ فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكّي والمدني يعرف بغير نص من الرسول ﷺ.

ولهذا قال الباقلاني: (إنما يرجع في معرفة المكّي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول؛ لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول ﷺ).

أمثلة:

من أمثلة ما عرف أنه مكّي أو مدني عن طريق الصحابة رضي الله عنهم:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:64]، فقد أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إذاً مكية، والسورة مدنية.

- روى مسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أَلَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا متعمداً من توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان:86] إلى آخر الآية. قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:93].

● الطريق الثاني: القياسي الاجتهادي:

نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات والصور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول "السماعي النقلي" واستنبطوا خصائص وضوابط للصور المكية، وخصائص وضوابط للصور المدنية، ثم نظروا في الصور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص الصور المكية قالوا إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص الصورة المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس، فسمي هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

وقد نقل الزركشي في كتابه "البرهان" عن الجعبري قوله: (لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقط، أو ﴿كَلَّا﴾، أو أولها حرف تَهَجٍّ - سوى الزهراوين والرعدي-، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أوحد فهي مدنية).

❖ خصائص الصور المكية والمدنية:

1_ الخصائص التي تتميز بها الصور المكية:

أ_ الخصائص الأسلوبية:

1- قصر الآيات والصور، وإيجازها وقوة تعبيرها وتجانسها الصوتي.

- 2- كثرة أسلوب التأكيد ووسائل التقرير ترسيخا للمعاني، كالاكتثار من القسم وضرب الأمثال والتشبيه.
- 3- كثرة الفواصل.

ب_ الخصائص الموضوعية:

- 1- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.
- 2- الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة، والتشريعات العامة.
- 3- مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم، وتشنيع القبيح من عاداتهم بحجج دامغة وبراهين مقنعة.
- 4- إنذار المشركين والكفار بما قص عليهم من أنباء الرسل مع أقوامهم بانتصار أهل الإيمان وإبادة أهل الكفر.

2_ الخصائص التي تتميز بها السور المدنية:

أ_ الخصائص الأسلوبية:

- 1- سلوك الإطناب والتطويل في آياته وسوره.
- 2- سهولة ألفاظها وخلوها من الغريب اللغوي في الغالب.
- 3- الأسلوب الهادئ والحجة الباهرة عند مناقشة أهل الكتاب، والأسلوب التهكمي عند مجادلة أهل الكتاب وفضح نواياهم الخبيثة.

ب_ الخصائص الموضوعية:

- 1- التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية.
- 2- بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد، وحكمة تشريعه، وذكر الأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والمعاهدات والصلح والغنائم والفيء والأسرى.
- 3- دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وبيان ضلالهم فيها.
- 4- بيان ضلال المنافقين وإظهار ما تكنه نفوسهم من الحقد والعداوة على الإسلام والمسلمين.

❖ أنواع المكّي والمدني:

قال أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري في كتاب "التنبيه على فضل علوم القرآن": "من أشرف علوم القرآن:

- 1- علم نزوله
- 2- وجهاته
- 3- وترتيب ما نزل بمكة والمدينة
- 4- وما نزل بمكة وحكمه مدني
- 5- وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي
- 6- وما نزل بمكة في أهل المدينة
- 7- وما نزل بالمدينة في أهل مكة
- 8- وما يشبه نزول المكّي في المدني
- 9- وما يشبه نزول المدني في المكّي
- 10- وما نزل بالجحفة
- 11- وما نزل ببيت المقدس
- 12- وما نزل بالطائف
- 13- وما نزل بالحديبية
- 14- وما نزل ليلا
- 15- وما نزل نهارا
- 16- وما نزل مشيعا⁸
- 17- وما نزل مفردا
- 18- والآيات المدنيات في السور المكّية
- 19- والآيات المكّيات في السور المدنية
- 20- وما حمل من مكة إلى المدينة
- 21- وما حمل من المدينة إلى مكة
- 22- وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة

⁸ أي تشيعه الملائكة، مثل سورة الأنعام.

23- وما نزل مجملا

24- وما نزل مفسرا

25- وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكّي.

فهذه خمسة وعشرون وجها، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى " قال السيوطي: وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه، فمنها من أفردته بنوعه، ومنها ما تكلمت عليه في ضمن بعض الأنواع.

واجب: اذكر مثالا واحدا عن كل نوع من الأنواع السابقة (25 نوعا).

❖ فوائد معرفة المكّي والمدني:

1- تمييز النسخ من المنسوخ: فإذا وردت آيتان في موضوع واحد، وكان الحكم في إحداها مخالفاً له في الأخرى، وكانت إحداها مكية والأخرى مدنية، فإنّ المدني عندئذ يكون ناسخا للمكّي، لتأخير نزول المدني عن المكّي.⁹

2- الاستعانة به في تفسير القرآن: فإنّ معرفه مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

3- معرفة الصحيح من الضعيف في التفسير: (والترجيح بين الأقوال)

فقد يقع في بعض الأقوال ما يشير إلى تحديد المراد بالقرآن المكّي بحديث مدني، ويكون هذا الحديث المدني صحيحاً من جهة التفسير، لكنه لا يكون صحيحاً من جهة كونه هو المراد الأول الذي نزلت من أجله الآيات.

ومن أمثلة ذلك: قال ابن عطية رحمه الله . في تفسيره "المحرر الوجيز": في تفسير قوله الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُحْ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

⁹ النسخ في اللغة الإزالة والنقل والتغيير، وفي الشرع: هو رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه.

فلما يكون بين الآية المكية والآية المدنية تعارض، فلا شك أن الآية المدنية متأخرة زماناً عن الآية المكية، فلهذا يتوجه بالقول إلى أن الآية المدنية ناسخة للآية المكية التي أصبحت مرفوعة الحكم.

[طه:131]، قال بعض الناس¹⁰: سبب هذه الآية أنّ رسول الله ﷺ نزل به ضيف فلم يكن عنده شيء، فبعث إلى يهودي ليسلفه شعيراً فأبى اليهود إلا برهن، فبلغ الرسول بذلك إلى النبي ﷺ فقال: "والله أني لأميرٌ في السماء وأميرٌ في الأرض"، فرهنه درعه، فنزلت الآية في ذلك. قال القاضي أبو محمد -ابن عطية-: "وهذا معترض أن يكون سبباً؛ لأنّ السورة مكية، والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر الرسول ﷺ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر إنّ الآية متناقضة مع ما قبلها وذلك أن الله تعالى وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم والصبر على أقوالهم والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا إذ ذاك منحصر عندهم صائر به إلى خزي".

فالقصة في المدينة، والآية مكية، فترجّع عند المفسر القول الصحيح في معنى الآية بمعرفته للمكي والمدني. 4- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى: فإنّ لكل مقام مقالاً، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لبّه ومشاعره، ويعالج في دخيلته بالحكمة البالغة ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.¹¹

5- الوقوف على السيرة من خلال الآيات القرآنية: فإنّ تتابع الوحي على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالاً للشك فيما روي عن أهل السير موافقاً له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

6- يعين على معرفة تاريخ التشريع: والوقوف على سنة الله الحكيمة في تشريعه، وهو التدرج في التشريعات بتقديم الأصول على الفروع، والإجمال على التفصيل، وقد أثمرت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادات

¹⁰ أي بعض المفسرين.

على الدعوة الإسلامية بالقبول والإذعان والانتشار، ويترتب على هذا الإيمان بأن هذا التدرج لا يكون إلا من عليم خبير، عزيز حكيم، رحمن رحيم.¹²

7- الثقة بالقرآن الكريم وبحفظه: وبوصوله إلينا سلمًا من أدنى تحريف؛ نظرًا لاهتمام المسلمين وعنايتهم به كل هذا الاهتمام حتى عرفوا وتناقلوا ما نزل منه قبل الهجرة، وما نزل بالحضر أو السفر، بالليل أو النهار، بالصيف أو الشتاء، مما لم يحظَ بمثله كتاب آخر على الإطلاق غير القرآن الكريم.

من مظاهر عناية المسلمين بالقرآن الكريم:

أ-

بيان الحضري والسفري.

أمثلة الحضري كثيرة، وجلّ القرآن نزل في الحضر، وأما السفري فله أمثلة منها:

- ﴿وَأَتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196] ، ودليله ما أخرجه ابن أبي حاتم عن صفوان بن أمية قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ مضمخ بالزعران عليه جبة، فقال: كيف تأمرني في عمري، فنزلت، فقال: "أين السائل عن العمرة ألق عنك ثيابك ثم اغتسل"... الحديث. وكذلك قوله في هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾، نزلت بالحديبية، كما أخرجه أحمد عن كعب بن عجرة الذي نزلت فيه، والواحدى عن ابن عباس.

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: 102] نزلت بعسفان بين الظهر والعصر، كما أخرجه أحمد عن أبي عياش الزرقى.

- قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]؛ ففي الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع.

- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ ١ [التوبة: 42] وما بعدها، نزلت في تبوك، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

- سورة الفتح؛ ففي صحيح البخاري في قصة عمر مع رسول الله ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وكان ذلك في

¹² كما حصل التدرج في تحريم الخمر، فلو حرم مباشرة لما استجابت له النفوس.

منصرفه من الحديبية، وأخرج الحاكم في المستدرك عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها.

ب- بيان النهاري والليلي:

أمثلة النهاري كثيرة جدا، ولهذا قال ابن حبيب: "نزل أكثر القرآن نهاراً"، وأما الليلي فمن أمثلته:
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 109]، فقد أخرج ابن حبان في صحيحه، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن أبي الدنيا في كتاب "التفكير" عن عائشة أن بلالا أتى النبي ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي قال: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: "وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ الآية ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر".

- آية الثلاثة الذين خلفوا: وهي ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: 118]، ففي الصحيحين من حديث كعب بن مالك: "فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل" والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

- سورة مريم؛ روى الطبري عن أبي مريم الغسالي، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: ولدت لي الليلة جارية، فقال: "والليلة أنزلت عليّ سورة مريم، سمّاها مريم".

- سورة الفتح؛ ففي الحديث الصحيح: أن ذلك كان ليلاً.
- آية التيمم التي في المائدة: ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها وحضرت الصبح فالتمس الماء، فلم يوجد؛ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6]

ج- بيان الصيفي والشتائي:

مما لا شك فيه أن القرآن نزلت منه أي كثيرة في الصيف وهي كثيرة في الشتاء وقد أحصى بعض العلماء بعضاً من ذلك، فمن أمثلة الصيفي:

- قال الواحدي: أنزل الله في كلاله آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول النساء: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الآية [النساء: 12]، والأخرى في الصيف وهي التي في آخرها ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176]، وفي صحيح مسلم عن عمر قال: ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما

راجعته في الكلاله، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: "يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء" وقد كان ذلك في سفر حجة الوداع فيعد من الصيفي ما نزل فيها كأول المائة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3].

-ومن الصيفي الآيات النازلة في غزوة تبوك فقد كانت في شدة الحر كما دل عليه القرآن والسنة.

وذلك مثل: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة:42].

ومثل آية: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:81]

والآية ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:49]

ومن أمثلة الشتائي:

-قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَزَقَ كَرِيمٌ﴾ [النور:11-26] ففي الصحيح عن عائشة أنها نزلت في يوم شتاء.

-الآيات التي نزلت في غزوة الخندق في سورة الأحزاب، فقد كانت في شدة البرد كما يدل على ذلك القرآن وما ذكر في المغازي، ففي حديث حذيفة تفرق الناس عن الرسول ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلا فأتاني رسول الله ﷺ فقال: "قم فانطلق إلى معسكر الأحزاب"، قلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء من البرد... الحديث، وفيه أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:9] وما بعدها من الآيات. أخرجه البيهقي في الدلائل.

المحاضرة الخامسة: علم أسباب النزول القرآني

إنَّ سبب نزول آيات القرآن الكريم عموماً هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع.

وعليه فإن آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

– **القسم الأول:** قسم نزل من الله ابتداءً، فهو غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم، كسورة الفاتحة، والأنعام...

– **القسم الثاني:** قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة¹³ ويسميه العلماء سبب نزول الآية، وآيات هذا القسم هي الأقل، ولأهميتها أفردتها العلماء بالدراسة والبيان.

❖ عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء -رحمهم الله تعالى- عناية فائقة بدراسة أسباب النزول، وتظهر عنايتهم في ثلاث صور:

الأولى: أنهم أفردوا أسباب النزول بباب مستقل من أبواب علوم القرآن الكريم.

الثانية: أنَّ المفسرين يوردون أول ما يوردون في تفسير الآية سبب نزولها -إن كان لها سبب نزول-، ويعتنون بذلك، ويستندون إليه في تفسير الآية.

الثالثة: أنَّ العلماء أفردوا أسباب النزول بمؤلفات مستقلة وهي مؤلفات كثيرة، فأول من أفردته بالتأليف،

علي بن المديني (ت234هـ) ثم جاء بعده كل من:

• عبد الرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي (ت402هـ): "القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن".

¹³ من هذه الآيات ما نزلت بسبب حادثة وقعت فينزل القرآن لبيانها أو قضية تحتاج إلى تجلية أو حكم شرعي يبينه الله عز وجل لعباده أو رفع مشقة.

- أبو حسن علي بن أحمد الواحدي (ت 468هـ): "أسباب النزول".
- ابن الجوزي (ت 597هـ): "أسباب نزول القرآن".
- ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ): "العجاب في بيان الأسباب".
- السيوطي (ت 911هـ): "لباب النقول في أسباب النزول" ويسمى أيضاً "لباب المنقول".

ومن المؤلفات الحديثة:

- "جامع النقول في أسباب النزول" وشرح آياتها لابن خليفة عليوي.
- "الصحيح المسند من أسباب النزول" لمقبل من هادي الوداعي.
- "المحرر في أسباب النزول" لعصام الحميدان.

❖ تعريف أسباب النزول:

عرفه الشيخ مناع القطان بقوله: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".

وعرفه فهد الرومي بقوله: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتزل آية أو آيات من القرآن تبين الحكم فيها، أو كسؤال يوجه إلى الرسول ﷺ فتزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه".

ولهذا يمكن أن نعرف أسباب النزول بأنها كل قول أو فعل أو سؤال ممن عاصروا التنزيل فنزل بشأنه قرآن.

- مثال القول: ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال: أبو جهل: هل يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قال: فِقِيل: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَّأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ - أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي الثُّرَابِ - قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَّأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجَّهْتُهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فِقِيل: لَهُ: مَا لَكَ؟! فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَحَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنَحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (كَأَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)، يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ، (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى

* كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَدَّغُ الزَّبَانِيَةِ * كَلَّا لَا تَطِعُهُ [العلق: 6-19].

- ومثال الفعل: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، ويقولون: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) [البقرة: 197].

- ومثال السؤال: ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أنه قال: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) [البقرة: 222] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدْعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ.

❖ شرح التعريف: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".

- "وقت وقوعه": لأنه لا بد أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة، فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمان طويل خرج ذلك عن هذا الباب، وصار من باب الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السابقة كالآيات التي تتحدث عن خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس، وقصة إبنى آدم، وقصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام.
- ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتأخر زمنا يسيرا فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي ربي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 23-24]، قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة، وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنما نزلت بعد نحو شهر منها.
- والحادثة: التي ينزل القرآن لأجلها:

أ- قد تكون من الرسول ﷺ، كما حدث في سبب نزول سورة عبس، وقصة ابن أم مكتوم الأعمى، فقد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، فنزلت: (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) [عبس: 1-10]، فكان الرسول ﷺ إذا رأى ابن أم مكتوم بعد ذلك يقول: "مرحباً بمن عاتبني فيه ربي" ¹⁴.

ب- وقد تكون الحادثة من جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، كأولئك الصحابة الذين كانوا يصفون المنافقين ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]. قال مجاهد: "نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصفون المنافقين، فنهاهم الله تعالى عن ذلك".

ت- وقد تكون الحادثة من المشركين أو من اليهود أو من المنافقين والأمثلة على ذلك كثيرة.

□ و"السؤال" قد يكون عن ماض: كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 83]. أو عن حاضر كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: 189]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85]. أو عن مستقبل كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 215]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [النازعات: 42].

❖ طريق معرفة سبب النزول:

1_ النقل الصحيح عن الصحابة:

¹⁴ أسباب النزول للواحي

ذكر العلماء أنّ المرجع في معرفة أسباب النزول يتحتم أن يكون عن طريق النقل الصحيح عن صحابة رسول الله ﷺ لأنهم هم الذين عاصروا الوحي، وعاشوا التنزيل، ووقفوا على الأحداث والوقائع التي أحاطت بما نزل من آيات القرآن الكريم على سبب، كما أنهم سمعوا من الرسول الكريم ﷺ ما لم يسمعه غيرهم. ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز لأنه من القول في القرآن بغير علم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36] وقال ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"¹⁵.

روي عن سعيد بن جبيرة رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الحديث إلا ما علمتم، فإن من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار".

وروى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: "اتق الله، وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن".

وقال الواحدي: "ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها، وجدّوا في طلبها".
إذن: فالمعتمد عليه في أسباب النزول جانب الرواية، ولا بد أن تكون الرواية صحيحة، دالة بصيغها على أنّ ذلك سبب في نزول الآية كما قرر العلماء في ذلك.

❖ الصيغ التي يرد بها سبب النزول:

■ **الصيغة الأولى:** التي يقول فيها الصحابي مثلاً: سبب نزول هذه الآية كذا، فهذه العبارة صيغة صريحة في السببية، وكذلك إذا أتى بفاء التعقيب، وقرنها بعبارة الإنزال بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول: حدث كذا وكذا فأنزل الله تعالى آية كذا، أو فنزلت آية كذا، أو يقول: سئل رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت آية كذا، فهذه الصيغة كذلك صريحة في السببية؛ لأنّ قائلها أوضح فيها أن نزول الآية أو الآيات ترتب على وقوع تلك الحادثة، أو توجيه هذا السؤال، ومعنى ذلك أنّ سبب النزول هو هذه الحادثة أو ذلك السؤال. ولها حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ.

¹⁵ رواه الترمذي. وقال هذا حديث حسن.

مثال: ما ثبت في الصحيح عن مسروق، قال: سمعت خباب بن الأرت يقول: جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا، حتى تموت ثم تبعث قال: وإني لميت ثم مبعوث فقلت: نعم فقال: إن لي هناك مالا وولدا فأقضيكَ فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 77-78].

■ **الصيغة الثانية:** هي التي تكون العبارة فيها محتملة، فتصلح لأن يراد بها سبب النزول، كما تصلح أن يراد بها التفسير، كأن يقول الصحابي (ﷺ): (نزلت هذه الآية في كذا)، لكن لا ينبغي أن يفهم احتمال هذه العبارة للأمرين معاً دفعةً واحدةً في الموضع الواحد، بل المراد أنها إما أن يراد بها سبب النزول، أو يراد بها التفسير وما تشتمل عليه الآية، وعندئذ يتوقف فهم المراد منها على دليل أو قرينة توضح هذا المراد. وكذلك إذا قال: "أحسب هذه الآية نزلت في كذا" أو "ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا" فإن الراوي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب.

مثال: ما روي عن عبد الله بن الزبير " أَنَّ رَجُلًا مِّنَ الْأَنْصَارِ خَاصِمَ الزُّبَيْرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : سَرَحَ الْمَاءُ يَمُرُّ فَأَبَى عَلَيْهِ فَاخْتَصَمُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسَلَ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ فغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ : يَا زُبَيْرُ اسْقِ ثُمَّ احْسِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: إِنِّي أَحْسَبُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ، وفي رواية: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

2_ النقل الصحيح عن بعض التابعين:

إذا ورد سبب النزول عن التابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط، وهي:

- 1- أن تكون عبارته صريحة في السببية: بأن يقول "سبب نزول هذه الآية كذا"، أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلية على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول "حدث كذا وكذا" أو "سئل رسول الله ﷺ عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية".

2- أن يكون الإسناد صحيحًا.

3- أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة.

4- أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قبلت وصار لها حكم الحديث المرسل.

وبهذا ندرك الحيلة الشديدة التي اتخذها العلماء -رحمهم الله تعالى- لصيانة تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبديل.

❖ تعدد الروايات في سبب النزول وتعارضها:

يرجع تعارض الروايات في سبب النزول إلى تعددها، والتعدد نوعان:

الأول: تعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة.

الثاني: تعدد الآيات في سبب نزول واحد.

1. تعدد الروايات في سبب النزول¹⁶ :

قد تتعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة وفي مثل هذه الحالة يكون موقف المفسر منها على النحو الآتي:

أ- إذا لم تكن الصيغة الواردة صريحة: مثل "نزلت هذه الآية في كذا" أو "أحسبها نزلت في كذا" فلا منافاة بينها، إذ المراد التفسير، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول، إلا إن قامت قرينة بأن المراد بها السببية.

ب- إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله "نزلت في كذا" وصرح آخر بذكر سبب مخالف: فالمعتمد ما هو نص في السببية، وتُحمل الأخرى على دخولها في أحكام الآية.

ومثال ذلك: ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾

[البقرة: 223] عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم أنزلت هذه الآية قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن.

¹⁶ يرجع لكتاب مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، وكتاب المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبه.

فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة في السببية وقد جاء التصريح بذكر سبب يخالفه، فعن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

فجابر هو المعتمد لأن كلامه نقل صريح، وهو نص في السبب، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيحمل على أنه استنباط وتفسير.

ج- وإذا تعددت الروايات وكان جميعها نصاً في السببية وكان إسناد أحدها صحيحاً دون غيره:
فالمعتمد الرواية الصحيحة.

ومثاله: ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب البجلي قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثة، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: 1-3]

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها - وكانت خادمة الرسول ﷺ (أن جرواً¹⁷ دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتيني! فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَرَضَىٰ﴾ قال ابن حجر في شرح البخاري: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب في نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيحين.

د- إذا تساوت الروايات في الصحة ووجد وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلاً¹⁸ أو كون إحداها أصح: قدمت الرواية الراجحة.

ومثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه،

¹⁷ الجرو: صغير الكلب.

¹⁸ أي أن راوي القصة وراوي الحديث حضر هذه القصة.

فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 85).

وقد أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسأله عن الروح، فسأله، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. فهذه الرواية تقتضي أنها أنزلت بمكة حيث كانت قريش، والرواية الأولى تقتضي أنها أنزلت بالمدينة، وترجح الرواية الأولى لحضور ابن مسعود القصة، ثم لما عليه الأمة من تلقى صحيح البخاري بالقبول وترجيحه على ما صح في غيره.

● وقد اعتبر الزركشي هذا المثال من باب تعدد النزول وتكرره، فتكون هذه الآية قد نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة واستند في ذلك إلى أن سورة "سبحان" مكية بالاتفاق.

مع أن كون السورة مكية لا ينفي أن تكون آية منها أو أكثر مدنية، وما أخرجه البخاري عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مدنية، ووجه ترجيح رواية ابن مسعود على رواية الترمذي عن ابن عباس أولى من حمل الآية على تعدد النزول وتكرره.

ولو صح أن الآية مكية وقد نزلت جواباً عن السؤال فإن تكرار السؤال نفسه بالمدينة لا يقتضي نزول الوحي بالجواب نفسه مرة أخرى بل يقتضي أن يجيب الرسول ﷺ بالجواب الذي نزل عليه من قبل.

هـ- إذا تساوت الروايات في الترجيح: جُمع بينهما إن أمكن، فتكون الآية قد نزلت بعد السببين أو الأسباب لتقارب الزمن بينهما.

ومثال ذلك: آيات اللعان ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ﴾ [النور: 6-9] فقد أخرج البخاري والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في هلال ابن أمية، قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء.

وأخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد: أَنَّ عُوَيْمِرًا أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ -وكانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلَانَ- فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا؛ أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَأَتَى عَاصِمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرِهَ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللَّهِ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ:

يا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ وَجَدَ مع امْرَأَتِهِ رَجُلًا؛ أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وفي صَاحِبَتِكَ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمِلَاعَنَةِ بما سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَاعَنَهَا، ثُمَّ قَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ حَبَسْتُهَا فَقَدْ ظَلَمْتُهَا. فَطَلَّقَهَا، فَكَانَتْ سُنَّةً لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي الْمِتْلَاعَيْنِ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انْظُرُوا؛ فَإِنْ جَاءَتْ به أَسْحَمَ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ، عَظِيمَ الْأَلْيَتَيْنِ، حَدَّ لَجِّ السَّافِقَيْنِ؛ فلا أَحْسِبُ عُومِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ به أُحْيِمَرُ كَأَنَّهُ وَحَرَّةٌ، فلا أَحْسِبُ عُومِرًا إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا. فَجَاءَتْ به عَلَى النَّعْتِ الذي نَعَتَ به رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَصْدِيقِ عُومِرٍ، فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ.

فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أولاً وصادف مجيء عويمر كذلك فنزلت في شأنهما معا بعد حادثتيهما. ولهذا قال ابن حجر: "لا مانع من تعدد الأسباب".

و- إذا لم يمكن الجمع لتباعد الزمن: فإنه يحمل على تعدد النزول وتكرره.

ومثاله: ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: "أي عمّ قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله"، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزلَا يكلمانَه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: "لأستغفرن الله لك ما لم أُنْهَ عنه"، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 113].

وأخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب قال "سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت".

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ يوماً إلى المقابر فجلس إلى قبر منها، فناداه طويلاً ثم بكى، فقال: "إن القبر الذي جلست عنده قبر أُمِّي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأُنزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾".

فجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول وتكرره.

2. تعدد النزول مع وحدة السبب:

قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد ولا شيء في ذلك، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى.

ومثال ذلك: ما أخرجه سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ إلى آخر الآية [آل عمران: 195].

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر: "يا أيها الناس" قالت: وأنا أُسرح رأسي، فلففت شعري، ثم دنوت من الباب، فجعلت سمعي عند الجريد، فسمعتة يقول: "إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: 35].

وأخرج الحاكم عن أم سلمة أيضاً أنها قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32]، وأنزل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد.

تعدد ما نزل في شخص واحد:

قد يحدث لشخص واحد من الصحابة أكثر من واقعة ويتنزل القرآن بشأن كل واقعة منها فيتعدد ما نزل بشأنه بتعدد الوقائع.

ومثاله: ما رواه البخاري في كتاب "الأدب المفرد" في بر الوالدين، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: نزلت في أربع آيات من كتاب الله: كانت أُمِّي حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمداً فأنزل الله: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]. والثانية: أُمِّي كُنت أَخَذْتُ سَيْفًا فَأَعْجَبَنِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ

عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1]

والثالثة: أنى كنت مرضت فأتاني رسول الله فقلت يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي فأوصي بالنصف؟ فقال: لا، فقلت: الثالث. فسكت، فكان الثالث يعد جائزاً.

الرابعة: إني شربت الخمر مع قوم من الأنصار فضرب رجل منهم أنفي بلحى جمل فأتيت الرسول فأنزل الله تحريم الخمر.

ومن هذا القبيل موافقات عمر فقد نزل الوحي موافقا لرأيه في عدة آيات.

— كما في قضية أسارى بدر¹⁹ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 67].

— وقوله ﷺ للنبي ﷺ: "يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مُصَلًى"، فنزلت: ﴿وَإِخْذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125].

— وأيضاً قوله: "يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهنَّ البرُّ والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن"، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59].

¹⁹ لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأنهم، لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك، قدّمهم فاضرب أعناقهم! وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارا. قال: فقال له العباس: قُطِعَتْ رَحْمَتُكَ! قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبههم، ثم دخل. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إنَّ الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإنَّ الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة! وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، الآية [المائدة: 118]. ومثلك يا عمر مثل نوح، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26]، ومثلك كمثله موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنتم اليوم عالة، فلا ينفلت أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضرب عنق. قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيته في يوم أخوف أن تقع عليَّ الحجارة من السماء، مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سهيل بن بيضاء. قال: فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، إلى آخر الثلاث الآيات.

❖ أثر معرفة أسباب النزول في التفسير:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

1- معرفة حكمة التشريع. وأنه قام على رعاية مصلحة الأمة ودفع الضرر عنها وجلب الخير لها والرحمة بها، وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها حين جاءت إلى الرسول ﷺ تشتكي زوجها وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونترث له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فنزل قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [مجادلة:1]. وهو أوس بن الصامت²⁰ فشرع الله تعالى الكفارة؛ رحمة بها وبأمثالها؛ وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك وحماية للأبناء من التشرذم.

2- معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالآية وتفسيرها التفسير الصحيح ودفع اللبس والإشكال عن معناها.

قال الواحدي عن أسباب النزول "هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها؛ لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها".²¹
وقال أبو الفتح القشيري: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز"²²
وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قول الفقهاء: أنه إذا لم يعرف ما نواه الخالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجه وآثارها"²³..

ومن الأمثلة على ذلك:

1-قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115].

²⁰ لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص206.

²¹ أسباب النزول، الواحدي، ص4.

²² البرهان، الزركشي، ج1، ص22.

²³ مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص47.

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء، ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا حضر ولا في فرض ولا في نافلة، وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة بوجوب التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب نزول هذه الآية:

وهو كما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا قد عرفنا: القبلة ههنا قبل الشمال. فصلوا وخطوا خطوطاً، وقال بعضهم: القبلة ههنا قبل الجنوب فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ عن ذلك فسكت فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115].

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وبهذا ندرك أن هذه الآية خاصة بمن صلى وهو لا يعرف القبلة ثم يتبين له خطؤه فإنه لا يعيد الصلاة، وكذا في صلاة النافلة على الراحلة في السفر لا يلزم التوجه إلى القبلة²⁴. وبمعرفة سبب النزول زال الإشكال.

2- ومثله آية: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]، فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضي أن السعي فرض؛ لأن رفع الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكاً بالظاهر، وقد ردّت عائشة على عروة بن الزبير في فهمه ذلك بما ورد في سبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثّموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية، حيث كان على الصفا "إساف" وعلى المروة "نائلة"، وهما صنمان، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما: "فعن عائشة أنّ عروة قال لها: رأييت قول الله: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾؟ فما أرى على أحد جناحاً ألا يطوف بهما؟"، فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أخي، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت، إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، وكان من أهلها يتخرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾

²⁴ أما من كان في البلدان فإنه لا يعذر بجهل القبلة.

الآية قالت عائشة: ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما، فهو ركن من أركان العمرة والحج.

3-ومن فوائد معرفة سبب النزول: تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا عرف سبب نزولها؛ لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها.²⁵

4-معرفة من نزلت فيه الآية بعينه حتى لا يبرأ المتهم أو يتهم البريء وحتى لا يزعم أحد أن المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية والمراد بها غيره.

5-معرفة أنّ سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها. وبيان ذلك: أن اللفظ قد يكون عامًا ويقوم دليل على تخصيصه فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع؛ لأن دخول السبب قطعي، وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي، والاجتهاد ظني، ولا يجوز إخراج القطعي بالظني.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:23].

وسبب نزول هذه الآية: حادثة الإفك المشهورة، ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب. لكن الآية الأخرى استثنت من تاب فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:3-4]. فلفظ الآية هنا عام ثم خصص بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

وبهذا التخصيص تخصص عموم الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ الآية.

²⁵ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص106-107.

لكن التخصيص للآية الأولى لا يشمل سبب نزولها وهو قذف عائشة رضي الله عنها. فيبقى على عمومته بعدم قبول توبة من قذفها لأن دخوله في لفظ الآية الأولى العام قطعي، وإخراجه بما ورد في الآية الثانية اجتهادي ظني والقطعي لا يخرج بالظني. وبهذا يبقى حكم عدم قبول توبة القاذف خاصاً يقذف عائشة وأمّهات المؤمنين، ويكون قبول التوبة في قذف غيرهن.

6- تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ومثال قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188].

فقد أشكلت هذه الآية على مروان بن الحكم فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعين. فقال ابن عباس: ومالكم ولهذا إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكنتموه إياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه ما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: 187-188]. (رواه البخاري ومسلم).

7- ومن فوائد معرفة سبب النزول كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الحال وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها.

ويمثل له بالذين خلفوا، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ* وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 117-119].

❖ قاعدة مهمة في التفسير: ((العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب))

□ إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم أو اتفق معه في الخصوص: حمل العام على عمومه والخاص على خصوصه.

*ومثال الأول: عموم اليهود وعموم النساء: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222] عن أنس رضي الله عنه قال: إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها...

*ومثال الثاني: الأتقى: أبو بكر الصديق، قوله تعالى: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: 17-20].
فإنها نزلت في أبي بكر، والأتقى: أفعال تفضيل مقرون ب(أل) العهدية فيختص بمن نزل فيه، وإنما تفيد (أل) العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع على الراجح، و(أل) في الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعال التفضيل، والأتقى ليس جمعا، بل هو مفرد، والعهد موجود لاسيما وأن صيغة أفعال تدل على التمييز، وذلك كاف في قصر الآية على من نزلت فيه، ولذا قال الواحدي: الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين "عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وأم عيسى، وأمة بني المؤئل، وفيه نزلت ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾.

(فهذا سبب خاص في قضية معينة، فهو خاص على خصوصه، فيكون المقصود بهذه الآية هو رجل خاص وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه)

□ أما إذا كان السبب خاصاً ونزلت الآية بصيغة العموم: فقد اختلف الأصوليون أ تكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب.

1- فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب²⁶، فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته: فعن ابن عباس: أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمِّيَّةٍ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْبَيْتَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ"، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى

²⁶ بمعنى أن أي آية نزلت في قضية معينة فإنها تشمل الجميع إلا ما ورد التخصيص في ذلك.

أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ! فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الْبَيِّنَةُ، وَإِلَّا حَدُّ فِي ظَهْرِكَ"، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِلَيَّ لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُرِي ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور-6-9]. فأنصرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسل إليها، فجاء هِلَالٌ فَشَهِدَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَفُوهَا، وقالوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّاتٌ وَنَكَصَتْ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبْصُرُوهَا؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ، سَابَغَ الْأَلْيَتَيْنِ، حَدَجَ السَّاقَيْنِ؛ فَهُوَ لِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ.

فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ﴾ غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر. وهذا هو الرأي الراجح والأصح، وهو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة، والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها. فالاحتجاج بعموم الآيات التي نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم.

قال ابن تيمية: "قد يجيء هذا كثيراً ومن هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله، وإن قوله: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [المائدة:49] نزلت في بني قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهيّاً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خيراً يمدح أو يذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته".

2- وذهب جماعة إلى أنّ العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص، ولا بد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة، ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب.

وهذا القول الثاني هو خلاف ما عليه جمهور المحققين في هذه المسألة.

سؤال: اشرح هذه العبارة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

الجواب:

قسم العلماء النازل من القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: أن يكون السبب خاصاً واللفظ النازل خاصاً.

ثانياً: أن يكون السبب عاماً واللفظ النازل عاماً.

فهذان النوعان لا خلاف بين العلماء في حمل كل منهما على الآخر وذلك للمطابقة بين السبب واللفظ المنزل.

ثالثاً: أن يكون السبب خاصاً، واللفظ النازل عاماً، فهذا الذي اختلف فيه العلماء، والذي عليه الجمهور أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمثلاً آيات الظهار وإن نزلت في خولة بنت ثعلبة مع زوجها إلا أن الحكم عام لهما ولغيرهما، وذلك لأنه لو أراد الله قصر الحكم على السبب ما أنزل علينا لفظاً عاماً، ولأن حمل النصوص العامة على الأسباب الخاصة تخصيص للنص القرآني بما لا يصح أن يخص به.

كما أنه ينبغي العلم بأن الذين خالفوا الجمهور في أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، لأن هذا لا يقوله عاقل ولا مسلم على الإطلاق؛ لأنه لم يقل أحد من علماء المسلمين أن عموميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ وإنما يكون بالقياس، أو بدليل آخر غير هذا الدليل الذي نزل في سبب خاص.

(فالآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً ونهيّاً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً).

المحاضرة السادسة: علم القراءات القرآنية

القراءات القرآنية:

تعريفها: اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف وكيفية أدائها. (تعريف الزركشي).
علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقل. (تعريف ابن الجزري).
وعليه فعلم القراءات: يُعنى بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها معزواً إلى ناقله²⁷.
فالقراءة: ما يُنسب للإمام القارئ، كالإمام نافع المدني، والإمام عاصم الكوفي.
والرواية: ما يُنسب للراوي عن الإمام القارئ، مثل رواية ورش عن نافع، وحفص عن عاصم²⁸.
والطريق: ما يُنسب للآخذ عن الراوي وإن نزل، مثل طريق الأزرق عن ورش، أو الأصبهاني عن ورش، أو عبيد بن الصباح عن حفص، ومثل طريق الشاذلية والدرة المضية، وطريق طيبة النشر²⁹.
أركان القراءة الصحيحة (إذا اختل ركن صارت القراءة شاذة):

هنالك ثلاثة شروط لصحة القراءة، وهي:

1- صحة السند واتصاله

2- موافقة القراءة للرسم العثماني.

3- موافقة القراءة للغة العربية ولو بوجه.

وهي ما ذكرها الإمام ابن الجزري رحمه الله بقوله:

وكلُّ ما وافق وجه نحو أو كان للرسم احتمالاً يحوي
أو صحَّ اسناداً هو القرآنُ فهذه الثلاثة الأركان³⁰

القراءات المتواترة:

²⁷ منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، ص3.

²⁸ القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، محمد بن عمر بازمول، دار الفرقان، القاهرة، ط1. 2009، ج1، ص120.

²⁹ المرجع نفسه، ج1، ص122.

³⁰ أي هذه أركان القراءة الصحيحة.

القراءات المتواترة هي عشر قراءات، تنسب كل قراءة إلى إمام من أئمة القراءة، وهذه النسبة ليست نسبة اختراع وإيجاد ولكنها نسبة ملازمة وإتقان، ولكل قارئ راويان، ولكل راو طريق أو أكثر، ونذكر قارئين فقط على سبيل المثال -لا الحصر-:

1_ قراءة الإمام نافع المدني (القارئ): رواها عنه عيسى بن مينا: (قالون الراوي)، وعثمان بن سعيد المصري: (ورث الراوي).

ورواية ورث رواها عنه أبو يعقوب يوسف الأزرق (صاحب طريق)، ورواها عنه: أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني (صاحب طريق).

2_ قراءة الإمام عاصم بن أبي النجود الكوفي (القارئ): رواها عنه أبو بكر بن عياش الكوفي (شعبة الراوي)، وحفص بن سليمان الغاضري (الراوي)³¹.

أشهر القراء من الصحابة:

عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبي بن كعب، زيد بن ثابت، ابن مسعود، أبو موسى الأشعري، أبو الدرداء.

أشهر القراء من التابعين:

ابن المسيب، عروة بن الزبير، سالم مولى ابن عمر، عمر بن عبد العزيز، سليمان بن يسار، يسار وأخوه عطاء، ابن شهاب الزهري، عبد الرحمن بن هرمز، معاذ بن الحارث.

بمكة المكرمة: عطاء، مجاهد، طاووس، عكرمة ابن أبي مليكة، عبيد بن عمير.

بالبصرة: عامر بن عبد القيس، أبو العالية، نصر بن عاصم، الحسن البصري، بن سيرين، يحيى بن يعمر.

بالكوفة: علقمة، الأسود، مسروق، الربيع بن خيثم، عمر بن شرحبيل، أبو عبد الرحمن السلمي، زر بن

حبيش..

بالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، خليل بن سعيد صاحب أبي الدرداء.

³¹ المرجع السابق، ج 1، ص 130.

القراء من أتباع التابعين:

المدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، شيبه بن نصاح، ثم ناصح بن أبي نعيم.

مكة: عبد الله بن كثير، حميد بن قيس الأعرج، محمد بن محيصن.

الكوفة: يحيى بن وثاب، عاصم بن أبي النجود، سليمان الأعمش، حمزة ثم الكسائي.

البصرة: عبد الله بن أبي اسحاق، عيسى بن عمر، أبو عمرو بن العلاء، عاصم الجحدري، يعقوب

الحضرمي.

الشام: عبد الله بن عامر، عطية بن قيس الكلالي، إسماعيل بن عبد الله، بن مهاجر، يحيى بن الحارث،

شريح بن يزيد الحضرمي.

القراء السبعة: وهم الذين عناهم ابن مجاهد، فهو أول من سبّعهم.

1- نافع المدني: وأشهر تلاميذه: قالون وورش.

2- ابن كثير المكي: وأشهر تلاميذه البزي وقنبل.

3- أبو عمرو البصري: وأشهر تلاميذه الدوري والسوسي.

4- ابن عامر الشامي: راويه: هشام وابن ذكوان

5- عاصم الكوفي: راويه: حفص وشعبة.

6- حمزة الكوفي: راويه: خلف وخلاد.

7- الكسائي الكوفي: راويه: أبو الحارث والدوري.

تمام القراء العشرة:

8- أبو جعفر المدني: راويه ابن وردان وابن حمار.

9- يعقوب البصري: راويه رويس روح.

10- خلف العاشر البزار: إسحاق وإدريس.

تمام القراء الأربعة عشر (القراءات الشاذة):

11-الحسن البصري.

12- وابن محيصن.

13-يحيى اليزيدي.

14-الشنبوزي.

سبب تعدد هذه الطرق

يقول الشيخ علي محمد الضباع: "لما اجتمع رأي أهل الأمصار على اختيار القراء العشرة المشهورين وأخذوا في تلقي قراءاتهم طبقة بعد طبقة إلى أن دونوها بالتأليف. ولما كان من واجب كل مؤلف أن ينسب كل قراءة إلى صاحبها مع تعيين ناقلها عنه طبقة بعد طبقة تحقيقا لصحة سندها وعلوه وللأمن من الوقوع في التركيب، فبتعيين الناقلين تعددت فروعهم إلى كل مؤلف وبتكرار الفروع في التأليف تعددت الطرق حتى بلغت على ما في الكتب التي آل الأمر في أخذ القراءات منها في العصور الوسطى وهي تسعون كتابا ذكرها ابن الجزري في نشره زهاء عشرة آلاف طريق.

أقول: هذا قبل أن يؤلف ابن الجزري كتابه النشر

ثم قال الضباع: ولما ألف الإمام ابن الجزري كتابه المذكور اقتصر فيه على الفروع التي علا سندها وأكثر المؤلفون من ذكرها فجمع فيه منها ألف طريق من سبعة وثلاثين كتابا وذكر معها أيضا مختارات لم يسبق تدوينها وصح سندها وتوفرت شروطها.

الأصول والفرش في القراءات:

أصول القراءات: هي القواعد المطردة التي تنطبق على كل جزئيات القاعدة، والتي يكثُر دورها ويتحد حكمها³².

مثالها: الاستعاذة، البسملة، الإدغام الكبير، هاء الكناية، المد والقصر، الهمزتان من كلمة ومن كلمتين، الإمالة...

³² المدخل في علم القراءات المتواترة، عاشور خضراوي، دار البلاغ، الجزائر، ط2، ص41.

وأما الفرش (الكلمات الفرشية): فهي الكلمات التي يقلّ دورها وتكرارها، ولا يتّحد حكمها. وتسمّى أيضاً بالفروع³³.

طرق تلقي القراءات:

الإفراد: هو أن يقرأ التلميذ على شيخه ختمة لكل راو أو لكل قارئ، وهكذا حتى يتم القراءات العشر. وهذه الطريقة هي الأصل في الإقراء، ولكن لطول الزمن الذي تستغرقه القراءة ولضعف الهمم توجه العلماء إلى القراءة بطريقة الجمع.

الجمع: هو أن يقرأ القارئ المقطع القرآني بقراءته المختلفة، فإذا انتهى منه انتقل إلى مقطع آخر. وله عدة طرق:

أ_ الجمع بالآية: وهو أن يحدد المقطع القرآني بآية واحدة، يستوفي فيه القارئ خلاف القراءة ثم ينتقل إلى قارئ آخر... وهكذا، ويبدأ في كل آية برواية قالون ثم بمن يوافقه إلى أن يكمل أوجه جميع القراء.

ب_ جمع الماهر بالآية: نفس الطريقة السابقة من حيث المقطع لكنها تختلف بأن التلميذ إذا انتهى بقارئ في الآية الأولى فإنه يبدأ به في الآية التالية.

ج_ الجمع بالوقف: وهو أن يحدد المقطع القرآني بالموضع الذي يقف عليه القارئ، ويستوفي فيه أوجه القراءة، ثم ينتقل إلى المقطع الذي يليه.

د_ جمع الماهر بالوقف: نفس الطريقة السابقة من حيث المقطع لكنها تختلف بأن التلميذ إذا انتهى بقارئ في المقطع الأولى فإنه يبدأ به في المقطع التالي.

قال ابن الجزري:

فالماهر الذي إذا ما وقفا يبدأ بوجه من عليه وقفا
يعطف أقربا به فأقربا مختصراً مستوعباً مرتباً

ضابط القراءة بالجمع: مراعاة حسن الوقف والابتداء، والبعد عن التلفيق وتركيب الأوجه في القراءة.

³³ المرجع نفسه، ص41.

قال ابن الجزري:

وجمعنا نختاره بالوقف وغيرنا يختاره بالحرف
بشرطه فليرع وقفا وابتدا ولا يُرَكَّب وليُجد حسن الأداء

هـ_ الجمع بالحرف: وهو أن يقرأ القارئ الآية فإذا مرَّ على كلمة فيها خلاف كرَّر الكلمة بحسب أوجه الخلاف فيها ثم يكمل القراءة لقارئ واحد، وهكذا³⁴.

6_ كتب القراءات التي يجمع بمضمونها:

1_ "التيسير في القراءات السبع": ألفه الإمام أبو عمرو الداني (ت: 444هـ) نسبة إلى دانية بالأندلس، وقد اشتهر هذا الكتاب بالأندلس شهرة عظيمة وصار الطلبة يحفظونه ويروون القراءات بمضمونه. ومما زاد في شهرة هذا الكتاب ما قام به الإمام الشاطبي من نظم له في منظمته حرز الأماي.

2_ متن الشاطبية "حرز الأماي ووجه التهاني في القراءات السبع":

منظومة ألفية لامية مكونة من 1117 بيتاً، محكمة السبك من بحر الطويل، آية من آيات الله في البلاغة، نظمها الإمام القاسم بن فيرُّه الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة 590هـ بمصر، وأصله من مدينة شاطبة بالأندلس.

أثنى عليها العلماء، فقال عنها الذهبي في معرفة القراء الكبار: "وقد سارت الركبان بقصيدة حرز الأماي وعقيلة أتراب القصائد اللتين في القراءات والرسم، وحفظهما خلق لا يحصون، وخضع لها فحول الشعراء، وكبار البلغاء، وحذاق القراء، فلقد أبدع وأوجز، وسهل الصعب، لذا تلقاها العلماء في سائر الأعصار والأمصا بالقبول الحسن، وحظوها بأعظم عناية".

وقال ابن الجزري: "ومن وقف على قصيدته وقف على ما آتاه الله، خصوصاً اللامية التي عجز البلغاء من بعده عن معارضتها، فإنه لا يعرف مقدارها إلا من نظم على منوالها، أو قابل بينها وبين ما نظم على

³⁴ انظر: المدخل في علم القراءات المتواترة، عاشور خضراوي، ص 33-34.

طريقها، ولقد رزق هذا الكتاب من الشهرة والقبول ما لا أعلمه في كتاب غيره في هذا الفن، بل أكاد أن أقول ولا في غير هذا الفن. فإنني لا أحسب بلدا من بلاد الإسلام يخلو منه، بل لا أظن أن بيت طالب علم تخلو منه نسخة"...

وقد ضمّن الشاطبي كتاب "التيسير" لأبي عمرو الداني في هذه المنظومة وزاد عليه بعض الخلافات، وهي ما عرف فيما بعد بزيادات القصيد، أي ما زادته الشاطبية على التيسير، يقول الشاطبي رحمه الله:

وفي يسرها التيسير رمت اختصاره فأجنت بعون الله منه مؤملا
وألفافها زادت بنشر فوائد فلفت حياء وجهها أن تفضلا
وسميتها حرز الأمان تيمنا ووجه التهاني فاهنه متقبلا

-منهج الشاطبي في الترميز:

قد استخدم رحمه الله تعالى في منظومته رموزا حرفية خاصة للدلالة على أسماء القراء، حيث رمز لكل قارئ بحرف، ولكل مجموعة من القراء برمز، فيقول رحمه الله:

جعلت أبا جاد على كل قارئ دليلاً على المنظوم أول أول
ومن بعد ذكرى الحرف أسمى رجاله متى تنقضي آتيك بالواو فيصلا

والمقصود بـأبا جاد، هجاء الحروف الأبجدية (أبج، دهرز، حطي، كلم، نصع، فضق، رست، ثخذ، طغش). كل ثلاثة حروف لقارئ وراوييه، والثاء للكوفيين، والحاء لغير نافع (وهم ستة قراء)، والذال للكوفيين وابن عامر، والطاء للكوفيين وابن كثير، والغين للكوفيين وأبي عمرو، والشين لحمزة والكسائي. كما خص بعض مجموعات القراء برموز كلمية وهي:

صحبة: شعبة وحمزة والكسائي.

صحاب: حفص وحمزة والكسائي.

عم: نافع وابن عامر.

سما: نافع وابن كثير وأبو عمرو.

حق: ابن كثير وأبو عمرو .
 نفر: ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر.
 حرمي: نافع وابن كثير (الحرميان)
 حصن: نافع والكوفيين.
 وإذا سمح له النظم بذكر اسم القارئ الصريح أو لقبه فإنه يسميه وفي ذلك يقول:
 وسوف أسمى حيث يسمح نظمته به موضحاً جيداً معماً ومخولاً.
 وإذا اختص القارئ بمذهب معين فإنه يخصه بباب خاص مثل:
 الإدغام لأبي عمرو والوقف لحمزة وهشام على الهمز، وفي ذلك يقول:
 ومن كان ذا باب له فيه مذهب فلا بد أن يسمى فيدرى ويعقلاً.
 واصطلح على ألفاظ عددها من الأضداد ليكتفي بذكر أحد الضدين ولعرف الآخر منه: فيقول:
 وما كان ذا ضد فإنني بضده غني فزاحم بالذكاء لتفضلاً.
 والمقدمة تحوي على وصايا جملة لقارئ القرآن فهي رائعة نافعة، ثم أتبعها بأبواب الأصول ثم الفرش في كل
 سور القرآن الكريم، فباب التكبير والمخارج والصفات ثم خاتمة جميلة مثل المقدمة.
-من أشهر شروح الشاطبية:

- "فتح الوصيد في شرح القصيد"، علم الدين السخاوي (ت643) وهو تلميذ الإمام الشاطبي.
- "إبراز المعاني من شرح حرز الأمان"، أبو شامة المقدسي وهو تلميذ السخاوي.
- "إرشاد المريد إلى مقصود القصيد"، علي محمد الضباع، وله شرح آخر مختصر اسمه: "تقريب
 النفع في القراءات السبع".
- "الوافي في شرح الشاطبية"، عبد الفتاح القاضي.
- "تقريب المعاني في شرح حرز الأمان"، سيد لاشين أبو الفرج، وخالد الحافظ.

3_ متن "الدرة المضية في القراءات الثلاث المرضية المتممة للشاطبية" لابن الجزري:

منظومة مكونة من 240 بيت نظمها الإمام ابن الجزري على وزن الشاطبية، ذكر فيها قراءات الأئمة
 الثلاثة المتممة للعشر وهي قراءة أبي جعفر، وقراءة يعقوب الحضرمي، وقراءة خلف البزار (العاشر). وذلك

كما ورد في كتابه "تجبير التيسير" في القراءات العشر الذي جمع فيه ابن الجزري بين كتاب التيسير للداني والقراءات الثلاث المتممة للعشرة.

وجعل لكل واحد من هؤلاء الثلاثة أصلاً من القراء السبع فجعل أصل أبي جعفر نافعا، وأعطاه رمزه في النظم (أبج)، وجعل أصل يعقوب أبا عمرو البصري وأعطاه رمزه في النظم (حطي) وجعل أصل خلف حمزة وعطاه رمزه في النظم (فضق)، ولم يذكر في منظومته إلا ما خالف فيه هؤلاء أصولهم في الشاطبية ورمزهم ثم الرواة كأصلهم فإن خالفوا أذكر وإلا فأهملا

من شروحها:

- "الإيضاح على متن الدرة"، الزبيدي، وهو مطبوع بتحقيق عبد الرزاق علي موسى.
- "الإيضاح"، عبد الفتاح القاضي.
- "شرح الدرة"، السمنودي.

4_ كتاب "النشر في القراءات العشر" لابن الجزري:

كتاب حافل عظيم جمع فيه ابن الجزري خلاف القراء العشر في القرآن، قدّم بمقدمة نفيسة في بيان فضل حملة القرآن وبيان جمعه وحفظه وضوابط القراءة الصحيحة وأقسام القراءات الشاذة، وتعريفاً موجزاً بالقراء العشرة وطرقهم، وبين مصادره فيما ذكره في النشر من القراءات فيما صار يعرف (بأصول النشر) وقام الدكتور أيمن سويد مع مجموعة من الباحثين بتحقيق بعضها فيما سماه "سلسلة أصول النشر".

وهذا الكتاب لا غنى عنه لكل طالب في علم التجويد والقراءة.

وقد اختصره ابن الجزري في كتاب آخر له سماه "تقريب النشر" وقام الشيخ زكريا الأنصاري باختصار التقريب وسماه "مختصر تقريب النشر".

5_ متن "طيبة النشر في القراءات العشر":

منظومة ألفها الإمام ابن الجزري، عدد أبياتها: 1015 بيتاً، ضمنها كتابه النشر، وجعلها على بحر الرجز، واستخدم فيها رموز الشاطبي واصطلاحاته، إلا فيما ليس في الشاطبية من القراء، وفي ذلك يقول، بعد أن بيّن منهجه فيها: وكل ذا اتبعت فيه الشاطبي ليسهل استحضار كل طالب.

الشاطبية + الدرة = "القراءات العشر الصغرى".

الطيبة = "القراءات العشر الكبرى".

فائدة :

طرق الشاطبية والدرة لا تزيد عن واحد وعشرين طريقاً لأن لكل راو طريقاً واحداً ما عدا إدريس عن خلف في اختياره فله طريقان في الدرة ولذلك كانت تحريراتها سهلة وخفيفة.

أما طرق الطيبة فهي كما سبق زهاء ألف طريق لأن لكل راو من الرواة العشرين طريقين وكل طريق من طريقين الخ، يقول ابن الجزري: باثنين في اثنين وإلا أربع: فهي زهاء ألف طريق تجمع ولذلك كانت تحريراتها صعبة وطويلة، فبذل المحررون جهدهم وحصروا الآيات القرآنية وبينوا ما فيها من الأوجه الممنوعة والجائزة من خلال هذه الطرق في تصانيفهم فجزاهم الله خيراً.

هل كل ما ينسب للقراء السبعة أو العشرة في كتب التفسير والنحو واللغة متواتر؟ فالجواب عن ذلك: ليس كل ما يراه القارئ في كتب التفسير أو اللغة أو النحو من قراءات منسوبة إلى واحد من هؤلاء القراء السبعة أو العشرة متواتراً إلا إذا كان مذكوراً في كتاب النشر أو الشاطبية أو الدرة فقط، وما عدا ذلك فليس بمتواتر ولا يقال له قراءة سبعة أو عشرية لانقطاع سندها عنهم.

التحريات:

تنقيح القراءة من أي خطأ أو خلل كالتركيب مثلاً، ويقال له التلفيق.

قال السخاوي في جمال القراء: "إن خلط هذه القراءات بعضها ببعض خطأ".

وقال القسطلاني شارح البخاري في لطائفه: "يجب على القارئ الاحتراز من التركيب في الطرق وتمييز بعضها من بعض وإلا وقع فيما لا يجوز وقراءة ما لم ينزل...".

وقال الشيخ مصطفى الأزميري: "التركيب حرام في القرآن على سبيل الرواية ومكروه كراهة تحريم على ما حققه أهل الدراية، فالتدقيق في القراءات وتقويمها والعمل على تمييز كل رواية على حده من طرقها الصحيحة، وعدم خلطها برواية أخرى، هو معنى التحرير وفائدته، وفيه محافظة على كلام الله من أن يتطرق إليه أي محرم أو معيب".



سند رواية ورش بطريقه

انتشار القراءات اليوم في العالم الإسلامي:

رواية حفص عن عاصم تنتشر في معظم الدول الإسلامية لا سيما في المشرق.

ورواية قالون في ليبيا تونس وأجزاء من الجزائر.

ورواية ورش في الجزائر والمغرب وموريتانيا ومعظم الدول الإفريقية.

ورواية الدوري عن أبي عمرو في السودان والصومال وحضرموت في اليمن.

ثانياً: الأحرف السبعة

أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف

لقد نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف، وقد جاءت أحاديث صحيحة دلت على ذلك، منها: ما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سم فليتيته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: كذبت أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئها، فقال: أرسله، اقرأ يا هشام فقرأ السورة التي سمعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك أنزلت، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ يا عمر، فقرأت التي أقرأني فقال: كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه".

الاختلاف بين الأحرف في القرآن

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أنه قال: "كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءته صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: "إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءته صاحبه، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ، فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأني أنظر إلى الله فرقاً، فقال لي:

يا أبي أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتي فرد علي الثانية أقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي فرد إلي الثالثة أقرأه على سبع أحرف فلك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم أغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام".

كما روى مسلم أيضا في صحيحه: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غَفَارٍ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتِكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ ، فَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ مَعَاذَهُ وَمَغْفَرَتَهُ، وَإِنْ أَمْتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتِكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ ، فَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ مَعَاذَهُ وَمَغْفَرَتَهُ، وَإِنْ أَمْتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ فَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ مَعَاذَهُ وَمَغْفَرَتَهُ ، وَإِنْ أَمْتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةُ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتِكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا".

ومما يدل عليه حديث أبي رضي رضي الله عنه أَنَّ تَبَايُنَ الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ كَائِنًا فِي الْقِرَاءَةِ وَهَيْئَاتِ النُّطْقِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لِأَنَّ أَبِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَمَعَ لِتِلَاوَةِ الرَّجُلَيْنِ فِي الصَّلَاةِ فَاسْتَنَكَرَ مَخَالَفَتَهُمَا بِمَا يَعْهَدُهُ فِي التِّلَاوَةِ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقَدْ أَقْرَأَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِرَاءَتَيْنِ تَلَاوَهُمَا، حَيْثُ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعِ أَحْرَفٍ تَسْهِيلًا لِلْأُمَّةِ نَظْرًا لِاخْتِلَافِ لَهْجَاتِ الْعَرَبِ وَالسَّنَنِهِمْ.

قال ابن قتيبة: "وكل هذه الحروف كلام الله تعالى، نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء وييسر على عباده ما يشاء، فكان من تيسيره أن أمره بأن يقرأ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم..."¹

عدة الأحرف سبعة على الحقيقة

تدل الأحاديث الواردة أنَّ المراد بالأحرف السبعة هي سبعة على الحقيقة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لما طلب الاستزادة منها ما طلب ذلك إلا تخفيفاً للأمة.

كما تدل الآثار أنَّ كل حرف من الحروف السبعة المنزلة قرآن والقراءة بحرف واحد منها كاف شاف؛ لأنَّ كل حرف مستغن بذاته عن غيره.

قال الطبري في معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل شاف كاف": "فإنه كما قال جل ثناؤه في صفة القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، جعله الله للمؤمنين شفاء، يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم ببيان آياته"¹

وبين عبد الرحمن الرازي أن كلاً من الأحرف قرآن يؤدي أغراض القرآن وآثاره فقال: "فأما قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر (كلها شاف كاف) فإنّ ابن عباس قال: كلها بيان وحكمة شافية للعباد كافية لهم، ومعنى ذلك أنّ كل حرف من الأحرف السبعة يشفي العباد ويكفيهم، ليس لأحدها فضل على الآخر، بعد كون جميعها منزلاً من عند الله، وكلامه بكل واحد من الأحرف في الخبر موصوف بالشفاء والكفاية لأهل التنزيل على الجملة نحو (شفاء ورحمة للمؤمنين)، (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب)".

مذاهب العلماء في معنى الأحرف السبعة

اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة وتشعبت أقوالهم وتعددت حتى بلغت في بعض الأقوال أربعين رأياً، منها ما يصلح للاعتبار والنظر والأخذ والرد والترجيح، ومنها أقوال ليس لها سند معتبر. ويدل على ذلك قول القرطبي: "وقد اختلف الناس في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً..." وقال السيوطي: "اختلف في معنى الحديث على نحو أربعين قولاً". وفيما يلي أهمها:

❖ **المذهب الأول:** ذهب أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي إلى أنّ حديث الأحرف السبعة مشكل لا يعرف له معنى، وليس يدل على حكم ما، يدل على ذلك أنّ الحرف يصدق لغةً على معان كثيرة:

1. فالعرب تسمي القصيدة بأسرها "كلمة" وتسمي هذه الكلمة المنظومة حرفاً.

2. كما يصدق الحرف لغةً على المعنى.

3. ويصدق أيضاً في الجهة.

وهكذا يرى ابن سعدان أنّ الحرف في اللغة مشترك لفظي لا يعرف معناه المقصود، والمشارك في اصطلاح الأصوليين: لفظ وُضع وضعاً شخصياً لمعنيين فأكثر، بأوضاع متعددة ابتداءً، بلا نقل من معنى إلى آخر وهذا ينطبق تماماً على لفظ حرف.

وإن كان الحرف هنا ليس اللفظ وليس حروف الهجاء وليس المعنى، ولعل المقصود الأقرب لغة هو الجهة، بمعنى أن القرآن الكريم نزل على سبع جهات أو أنحاء من الكلام العربي، وتعبير أدق على سبع من لغات القبائل العربية.

❖ **المذهب الثاني:** مذهب القاضي عياض ومن معه، ويرى أصحاب هذا المذهب أنّ المراد بالسبعة في الحديث التيسير والتسهيل والثقة، لا حقيقة العدد، مستدلين على ذلك أنّ لفظ السبعة يطلق في اللغة ويراد به الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات، والسبعمائة في المئين، ولا يراد بها العدد المعين.

وقد ذهب لهذا الرأي محمد جمال الدين القاسمي في مقدمة تفسيره، وكذلك ذهب مصطفى صادق الرافعي إلى هذا القول معتمداً على أنّ السبعة ترمز إلى الكمال في نظر العرب، فقال: "ما كان العرب يفهمون من معنى الحرف في الكلام إلا اللغة، وإنما جعلها سبعة رمزاً للقوة من معنى الكمال في هذا العدد..."

ويرد على هذا القول بالأحاديث التي تضافرت في الدلالة على أنّ المراد بالسبعة حقيقة العدد منحصراً فيها.

❖ **المذهب الثالث:** أنّ معنى الحرف القراءة، روي ذلك عن الخليل بن أحمد، وأنّ القرآن نزل ليقرأ على سبع قراءات، قال القاضي الباقلاني: "وزعم قوم أنّ كل كلمة تختلف القراءة فيها فإنها على سبعة أوجه..."

❖ **المذهب الرابع:** وهو أن يرد الاعتراض السالف على أصحاب المذهب السابق أنه ليس المقصود أن لكل كلمة سبع قراءات، وإنما قد تقرأ الكلمة بوجه أو اثنين أو أكثر إلى سبعة. ويحاج على ذلك: أنه لا يوجد في القرآن كلمة يصل تعداد قراءتها إلى سبع إلا القليل. ويحاج عن ذلك أيضاً أن بعض الكلمات تقرأ بوجه كثيرة تتجاوز السبعة، كقوله تعالى: "عبد الطاغوت"، فهي تقرأ باثنين وعشرين وجهاً، وفي كلمة "أف" سبع وثلاثون وجهاً

❖ **المذهب الخامس:** أنّ المراد بالأحرف السبعة في الحديث سبعة وجوه تنحصر في كيفية النطق بالتلاوة، من إدغام وإظهار، وتفخيم وترقيق، وإمالة وإشباع، ومد وقصر، وتشديد وتخفيف، وتلين وتحقيق، وهو محكي عن بعض القراء.

ويجاء على ذلك أن جميع الوجوه المذكورة ترجع إلى نوع واحد وهو اختلاف اللهجات، ويكون تفسير حديث الأحرف السبعة به قاصراً عن شمول أنواع القراءات التي مردّها إلى اختلاف اللهجات.

❖ **المذهب السادس:** أنّ المراد بالأحرف السبعة ينحصر في بعض الآيات إذ تُقرأ على سبعة أوجه، ونقل هذا القول القاضي الباقلاني عن جماعة، ويرد على ذلك أنّ الحديث الوارد في السبعة الأحرف يُفهم منه جميع القرآن لا بعضه.

❖ **المذهب السابع:** أنّ المراد بالأحرف السبعة سبعة أصناف من المعاني أنزل الله القرآن عليها وهذه الأصناف هي: (أمر ونهي، ووعد ووعيد، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه) واستدلوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف، زاجر وأمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه وافعلوا ما أمّرت به وانتهوا عما نهيت عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا "آمنا به كل من عند ربنا". وفي سند الحديث نظر

وحديث عمر رضي الله عنه ينفي ما فهمه أصحاب هذا المذهب من هذا الحديث، إذ أن الاختلاف كان على صلاة الرجل بقراءة ما أقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه، وما كان الاختلاف لا في الزاجر ولا في الأمر ولا في الوعد ولا في الوعيد ولا في الحلال ولا في الحرام ولا في المحكم ولا في المتشابه.

❖ **المذهب الثامن:** أنّ المراد بالأحرف السبعة هو الاختلاف في الكلام من سبعة وجوه:

1. الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، مثال ذلك من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ

لَأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قرئت هكذا: "لأمانتهم" بالإفراد أيضاً.

2. اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا بَاعِدْ

بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقرئت: ﴿رَبُّنَا بَعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ على أساس أنّ الفعل تحول من فعل

أمر لفعل ماض.

3. اختلاف وجوه الإعراب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ قرئ برفع لفظ المجيد وجره المجيد، فالرفع على أنه نعت لكلمة ذو، والجر على أنه نعت لكلمة العرش.
 4. الاختلاف بالنقص والزيادة، مثاله قول الله تعالى: ﴿سَارِعُوا﴾ قرئ كذلك: ﴿وَسَارِعُوا﴾ بزيادة الواو.
 5. الاختلاف بالتقديم والتأخير مثاله قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ قرئ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾.
 6. الاختلاف في الإبدال: مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَطَلَحَ مَنضُودٍ﴾، قرئ: ﴿وَطَلَعِ مَنضُودٍ﴾، بإبدال الحاء عينا.
 7. اختلاف اللهجات كالإمالة والتفخيم والترقيق والإظهار والإدغام، مثاله قول الله تعالى: "وَالضُّحَى" بالفتح وقرئ: "وَالضُّحَى" بالتقليل وبالإمالة¹. وهو المذهب الراجح، وذلك لأمر كثيرة منها:
 1. أنه هو الذي تؤيده الأدلة في أحاديث الأحرف السبعة.
 2. أن باقي الأقوال ضعيفة.
 3. أن هذا المذهب اعتمد على الاستقراء الثام لاختلاف القراءات، بخلاف المذاهب الأخرى التي كان استقراءها ناقصاً.
- حكم إنزال القرآن على سبعة أحرف:**
- من أبرز حكم نزول القرآن على سبعة أحرف ما يلي:

1/ تيسير القراءة والحفظ والفهم على قوم يصعب عليهم النطق بلغة لم تألفها ألسنتهم وطباعهم، وهم أميون لا يقرءون ولا يكتبون، شُبُّوا على لغة قومهم ولا يرتضون بها بديلاً، وتغيير العادة المستحكمة في النطق أمر عسير حتى على المتعلمين فضلاً عن الأميين.

2/ مراعاة لظروف الحياة القبلية في الجزيرة العربية القائمة على التعصب الكامل لكل ما له صلة بالقبيلة من نسب وأرض ومصلحة، ولسان يصعب التحول منه بين يوم وليلة.

3/ توثيق صلة القبائل العربية بالقرآن الكريم، وتحقيق مزيد استثناس وانسجام تام بينهم وبين القرآن الكريم وذلك من خلال مخاطبتهم بخطاب تألّفه قلوبهم وألسنتهم، وهذا من دقائق فقه الدعوة، وهو مخاطبة المدعو بما يجب أن يستمع له من لغته.

4/ إعجاز الفطرة اللغوية عند العرب؛ فهو لم يكن إعجازاً للسان دون آخر، وإنما كان إعجازاً للفطرة اللغوية نفسها كلّ بلهجته ولغته، فكلّ عربي يجد في القرآن ما يوافق لحنه الفطري ولهجة قومه، مع بقاء التحدي والإعجاز، وعجز الجميع عن معارضته.

5/ فيه بداية لتوحيد لغات العرب على أفصح مختاراتها، وهي بداية في التدرج لجمع الأمة الإسلامية على لسان واحد يوحد بينها.

6/ فيه البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أنّ هذا القرآن كلام الله، وعلى صدق من جاء به، وهو الرسول ﷺ، فإنّ هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء أو اختلاف فيه، بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضاً، قال الأديب مصطفى صادق الرافعي: "إنّ هذه الأحرف الكثيرة، والقراءات العديدة متّسقة، بعضها يؤيد بعضاً من غير اختلاف يؤدي إلى تضاد في المعاني والدلائل، أو تنافٍ في الأحكام والأوامر، وهذا يبرهن على أنّ القرآن الكريم من لدن حكيم خبير، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

7/ في نزول القرآن على سبعة أحرف تشريف لهذه الأمة، وبيان لسعة رحمة الله وعنايته بها بأن يسرّ عليها كتابه غاية ما يمكن أن يكون من اليسر.

8/ كما فيه كذلك مزية للقرآن الكريم على سائر الكتب السماوية التي كانت تنزل على حرف واحد جملة واحدة، ونزل القرآن على سبعة أحرف منجماً على قلب النبي ﷺ.

9/ تعدد الألفاظ بما يسهل فهمه على القبائل العربية على حسب استعمال كل قبيلة للفظة العربية للمعنى الواحد يدل على أنّ تدبر القرآن الكريم وتيسير فهم معانيه من أبرز المقاصد التي أنزل الله من أجلها

هذا الكتاب؛ لأنّه ربما كان يستصعب على الواحد منهم فهم المعنى؛ لأنّ اللفظة غير مستعملة في قبيلته وبيئته التي نشأ فيها، فيجد في الأوجه الأخرى ما يسهل عليه فهم المراد حسب ما يتفق مع ذوقه وما اعتاده سمعه.

10/ زيادة الأجر والثواب للمجتهدين من أبناء هذه الأمة، فهناك من العلماء من ظلُّوا يبحثون في هذا الموضوع ويهتمون به لسنوات عديدة، فهذا يدل على اهتمامهم بالقرآن الكريم، واتصال فكرهم به، ولأنّ هذه الأحرف نتج عنها اختلاف في أوجه القراءات وهذا يتطلب جهداً مضاعفاً للإلمام بها والمحافظة عليها، ويترتب عليه أجر وثواب عظيم.

المحاضرة السابعة: علم التفسير

التفسير في اللغة:

مأخوذ من مادة "فَسَّرَ": ومعناها الإبانة والكشف، وهي كلمة تدور على معنى ظهور الشيء وبيانه وتوضيحه، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة التفسير بمعنى الكشف والبيان كما ورد في الآية القرآنية الوحيدة: وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿33﴾ [الفرقان:33]، أي: تفصيلا وتوضيحا.

وفي الاصطلاح:

علم يعرف به فهم كتاب الله؛ المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه. وقيل: علم يفهم به كلام الله ﷻ على قدر الطاقة البشرية".

فهو علم يفهم به القرآن لمعرفة معانيه واستخراج أحكامه وحكمه وعظاته وعبره ويعرف الزركشي التفسير بأنه: علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها.

وكان يسمى التفسير عند السلف التأويل وهذا من حديث النبي لابن عباس عندما دعا له (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)

وأما التأويل: فهو مأخوذ من الأول للدلالة على الرجوع والصيرورة، ومنه آلت إليه السلطة، أي: رجعت إليه، وقد وردت في القرآن الكريم فاستعملت مصدرا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:7].

وقد وردت في آيات قرآنية أخرى، ولم يرد استعمال كلمة التأويل إلا في المقام الذي يعزّ فيه البيان، ويدق فيه الفهم، كآيات المتشابهات والأحلام والرؤى، والمصير المجهول.

الفرق بين التفسير والتأويل:

ذهب كثير من العلماء إلى أن التفسير والتأويل بمعنى واحد، كما قاله أبو عبيد، وقال مجاهد: "إن العلماء يعلمون تفسيره وتأويله"، وهو قول ابن جرير الطبري بداية من تسمية كتابه: "جامع البيان في تأويل آي

القرآن"، ثم في تفسيره للآية بقوله: "اختلف أهل التأويل، أو القول في تأويل الآية"، وهو يساوي بذلك بين مدلول كلمة التفسير والتأويل.

وذهب آخرون إلى أن معنى التفسير يخالف معنى التأويل في وجه من الوجوه. قال النيسابوري: "قد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتموا إليه"، فهؤلاء يرون أن التفسير يتعلق بما حول النصّ، وما يتبادر إلى الذهن لأول نظرة، أما التأويل فإنه الوصول إلى أعماق النصّ، وهو صرف اللفظ إلى ما يمكن أن يتحمّله من معنى.

وقال الأستاذ الذهبي بعد عرضه لمعظم التعريفات والأقوال في التفريق بينهما: "والذي تميل إليه النفس من هذه الأقوال هو أن التفسير "ما كان راجعاً إلى الرواية"، والتأويل: "ما كان راجعاً إلى الدراية"، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم. وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل.

والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني، وغير ذلك. قال الزركشي: "وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل، التمييز بين المنقول والمستنبط؛ ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط".

أهمية تدبر القرآن:

أمرنا الله ﷻ بتدبر هذا الكتاب العزيز، والسعي لفهم معانيه؛ لأن ذلك طريق الإيمان، والعمل الصالح، قال ابن قيم الجوزية: "ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر، ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله؛ الذي هو عصمتهم وبه نجاحهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم"

ومما يؤكد على أهمية فهم القرآن أن الله ذمّ كل من أعرض عن تدبر معانيه.

مراتب التفسير

المرتبة الأولى: التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها

المرتبة الثانية: التفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته وهو المراد من القرآن الكريم بالجملة مثال الفاتحة

المرتبة الثالثة: التفسير الذي يعلمه العلماء وهو الذي يحتاج إلى دراية وبحث

المرتبة الرابعة: التفسير الذي لا يعلمه إلا الله

-حكم تعلم التفسير: فرض كفاية

تاريخ التفسير ومراحل تطوره ومدارسه:

أ- تاريخ التفسير

إن نشأة علم التفسير كان متزامن مع نزول القرآن الكريم فإذا نزلت آية كان يبينها الرسول صلى الله عليه وسلم ويفسرها لأصحابه حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المرجع في تبين الكتاب وبيان معانيه وسار الصحابة على هذا المنهج في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم اتسعت البلاد ودخل الناس في الإسلام أفواجا" ودخلت العجمة واللحن إلى السليقة السليمة فاحتاج المسلمون لشرح وبيان الألفاظ والآيات من القرآن الكريم فقام الخلفاء بالتصدر لهذا الأمر وتكليف العلماء من الصحابة بتفسير القرآن الكريم وتبيينه للناس وكان من أشهر الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعائشة وغيرهم

وكان سيد المفسرين لمن بعده هو عبد الله بن عباس ويلييه عبد الله بن مسعود.

ثم جاء عصر التابعين حيث نهلوا علم التفسير من كبار الصحابة ومن أبرز المفسرين ومن أهم المفسرين من التابعين مجاهد ابن جبر وسعيد ابن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس وعطاء وهؤلاء تلاميذ

ابن عباس وسعيد ابن المسيب وزيد ابن أسلم وعلقمة ابن قيس ومسروق ابن الأجدع والشعبي وابراهيم النخعي والحسن البصري ومحمد ابن سيرين وقتادة والضحاك وغيرهم من التابعين
ثم جاء عصر تابعي التابعين وساروا على خطى أئمتهم واشتغلوا في تفسير كلام الله بالمأثور والرأي وبغير ذلك حتى عصرنا الحالي.

ب_ مراحل تطوره:

بداية عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة:

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالبلاغ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: 67].
وكلفه بالبيان. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].
فالنبي صلى الله عليه وسلم هو أول المفسرين للقرآن الكريم.

عصر الصحابة والتابعين ومدارسهم:

ثم جاء دور الصحابة في التفسير، وأشهر المفسرين عند الصحابة ومدارسهم:

1_ ابن عباس (شيخ مدرسة التفسير بمكة): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم ترجمان القرآن أنت". وقال علي في ابن عباس: "إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق لعقله وفطنته". ومن تلامذته: مجاهد بن جبر، عطاء بن أبي رباح، سعيد بن جبیر، عكرمة مولى بن عباس، طاووس بن كيسان.
وتفسير ابن عباس من خير التفاسير، إلا أن الناس قد دسوا ووضعوا عليه الكثير حتى قال الشافعي: "لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث".

وهناك تفسير ينسب إلى ابن عباس وهو "تنوير المقباس من تفسير ابن عباس" جمعه صاحب القاموس المحيط أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، وفيه كثير من الروايات الضعيفة.

2_ علي بن أبي طالب: وهو أكثر الخلفاء الأربعة تفسيرا للقرآن ورواية للحديث، وذلك لتأخر وفاته عنهم، ولسعة اطلاعه على لغة العرب، ولحاجة الناس إليه في زمانه، وقد عرف- رضي الله عنه- بحدة ذكائه وفصاحة لسانه، وسرعة بديهته، وغزارة علمه، ومعرفته لأسباب النزول.

ولكنه هو أيضا قد كذب عليه خلق كثير، ودسوا عليه أقوالا لم يقلها، ونسبوا إليه أفعالا لم يفعلها.

3_ عبد الله بن مسعود (شيخ مدرسة التفسير بالعراق): وهو من الصحابة الذين رحلوا إلى العراق، فكان مرجعهم في تفسير القرآن، وقد كان عالما بأسباب النزول، عارفا بأحوالها، ويكفيها شهادة علي بن أبي طالب حين قالوا له: أخبرنا عن ابن مسعود؟ فقال: "علم القرآن والسنة"، ومن تلامذته: مسروق بن الأجدع، قتادة بن دعامة، الحسن البصري والهمداني.

4_ أبي بن كعب (شيخ مدرسة التفسير بالمدينة): سيد القراء وأول مَنْ كتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار، وكتب له الرسائل والعهود، وشارك في جمع القرآن. ولما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أيها عن أي آية في القرآن أعظم، فقال أبي الله لا إله إلا هو الحي القيوم. ضرب النبي صلى الله عليه وسلم في صدره وقال: ليهنك العلم أبا المنذر"، وقال عنه عمر: "مَنْ أراد أن يسأل عن القرآن؛ فليأتِ أبي بن كعب".

ومن تلاميذه: أبو العالية، رفيع بن مهران، زيد بن أسلم.

ج- مدارس التفسير:

1 - مدرسة مكة:

وهم أعلم الناس في التفسير لأنهم أصحاب ابن عباس، ومن هؤلاء التابعين المبدعين:

أ- مجاهد بن جبر، وهو أوثق تلاميذ ابن عباس، وقد اعتبر البخاري والشافعي تفسيره حجة، قال النووي: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به". بيد أن الرواية عن هذا الإمام قليلة، ويرى بعض العلماء أن مجاهد كان يسأل أهل الكتاب، فيتريث في أخذ أقواله المنسوبة إليهم.

ب- عطاء بن أبي رباح، وقد شهد له العلماء بعلو كعبه في هذا العلم وبعدالته وتقواه، قال قتادة: "أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك"، وقال أبو حنيفة: "ما لقيت أحدا أفضل من عطاء".

ج- سعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وقد أكثر من التفسير، وطاووس بن كيسان اليماني.

2 - مدرسة المدينة:

ومن أشهر التابعين المفسرين فيها:

أ- أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، وهو من رواة أبي بن كعب. وقرأ القرآن على زيد بن ثابت وابن عباس.

ب- محمد بن كعب القرظي المدني ثم الكوفي.

ج- زيد بن أسلم، وقد أخذ عنه مالك بن أنس إمام دار الهجرة.

3 - مدرسة العراق:

من أشهر التابعين:

أ- مسروق بن الأجدع الكوفي. الملقب بـ "المخضرم" لأنه أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره.

ب- قتادة بن دعامة السدوسي البصري، وقد وثقه أئمة الجرح والتعديل كيحيى بن معين.

ج- أبو سعيد الحسن البصري: إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك.

د- مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي: ويُعرف بـ "مرة الطيب" و"مرة الخير". كان من عباد أهل الكوفة وصالحهم، وهو تابعي ثقة.

فهؤلاء هم أشهر التابعين في سائر الأمصار، وعنهم أخذ تابعو التابعين كسفيان ابن عيينة، ووكيع بن

الجراح، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، ويزيد بن هارون، وروح بن عباد، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني (شيخ البخاري)، وإسحاق بن راهويه، وآدم بن أبي إياس العسقلاني.

تدوين التفسير:

بقي علم التفسير مفردا ومنثورا في أحاديث متفرقة، فيروي الصحابي أو التابعي تفسير الآية دون أن يرتب ذلك في باب أو كتاب، ولم يرد إلينا كتاب في التفسير يفسر لنا القرآن سورة سورة، وآية آية، كما هي مرتبة في المصاحف، والذي يروي أنّ الفراء (المتوفى سنة 207هـ) هو أول من قام بتفسير القرآن سورة سورة وآية آية. قال ابن النديم في كتابه الفهرست: "إن عمر بن بكير كتب إلى الفراء أن الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولا، أو تجعل في ذلك كتابا أرجع إليه".

فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملّ عليكم كتابا في القرآن، وجعل لهم يوما، فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه القراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب، ففسرها ثم استوفى الكتاب كله، يقرأ الرجل ويفسر الفراء. فقال أبو العباس ثعلب: "لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه".

وقوله لم يعمل أحد قبله مثله، فهذا رأيه وبما قارنه مع غيره من التفاسير. وأما قوله: ولا أحسب أحدا يزيد عليه، فإن حسابانه لم يكن كما توقعه بل وجد الكثير وأول الكتب التي تفوقت عليه تفسير ابن جرير الطبري.

أقسام التفسير:

يمكن تقسيم التفسير باعتبار عدة:

1_ باعتبار طرق الوصول إليه: وجهة استمداده تكون من الطريق المعتاد نقلاً كان من القرآن نفسه، أو من السنة، أو من كلام الصحابة، أو التابعين، أو كان رأياً واجتهاداً. أو من غير هذا الطريق بأن يكون بطريق الإلهام والفيض، فالتفسير ينقسم بهذا الاعتبار إلى أربعة أقسام:

- تفسير بالرواية: ويسمى التفسير بالمأثور.
- تفسير بالدراية: ويسمى التفسير بالرأي.
- تفسير بالدراية والرواية: ويسمى التفسير الأثري النظري.
- تفسير بالفيض والإشارة: ويسمى التفسير الإشاري.

2_ باعتبار أساليبه:

ينظر إلى التفسير من جهة كونه شرحاً لمجرد معنى اللفظ في اللغة، ثم لمعنى الجملة أو الآية على سبيل الإجمال أو التفصيل، وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى قسمين:

- تفسير إجمالي.
- تفسير تحليلي.

3_ من جهة تناوله لموضوعات القرآن:

ينظر إلى التفسير من جهة خصوص تناوله لموضوع ما من موضوعات القرآن الكريم، عاماً كان كالعقيدة والأحكام أو خاصاً كالصلاة ونحوها. وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى:

تفسير عام.

تفسير موضوعي.

أنواع التفسير:

يقسم معظم العلماء التفسير إلى قسمين:

1 -التفسير بالمأثور: فهو كل تفسير يعتمد على المصادر التفسيرية: القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين.

التفسير المأثور وهو على أنواع:

1-تفسير القرآن بالقرآن: ومن أمثلته:

- ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ورد تفسيرها في السورة نفسها بالآية التي بعدها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:1-3].

- ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4]، ورد تفسيرها في سورة الانفطار: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار:15-19].

- وقوله في سورة الفاتحة أيضاً: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7-6]. فقد جاء تفسير الصراط من القرآن نفسه، وذلك في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:69].

2- تفسير القرآن بالسنة: ومن أمثلته:

- البيان العام حيث جاءت السنة ببيان كيفية الصلاة وأوقاتها وأنواعها في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:43]، فالسنة بينت أحكام الصلاة.

- البيان الخاص في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:96]. فسر بحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أحبَّ الله عبداً نادى: يا جبريل إني أحببت فلاناً فأحبه، قال: فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ

هُمْ الرَّحْمَانُ وَدًّا»، وإذا أبغض الله عبداً نادى: يا جبريل، إني أبغضت فلاناً فينادى في السماء، ثم تنزل له البغضاء في الأرض³⁵.

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: 82]، شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟! قال: "ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعو ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]³⁶.

3- تفسير القرآن بقول الصحابة: ومن أمثلته:

- ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [النساء: 43]، فسرهما ابن عباس بالجماع. وقال: "اللمس، والمس، والمباشرة: الجماع، ولكن الله يُكني بما يشاء". وأما ابن مسعود فيقول: "اللمس: ما دون الجماع".

4- تفسير القرآن بأقوال التابعين: وذلك بأن يفسر التابعي ألفاظ وآيات القرآن الكريم.

أشهر كتب التفسير بالمأثور:

- جامع البيان في تأويل آي القرآن/ الطبري (ت 310 هـ).
- بحر العلوم/ أبو الليث السمرقندي (ت 375 هـ).
- الكشف والبيان/ أبو إسحاق الثعلبي (ت 427 هـ).
- النكت والعيون/ أبو الحسن الماوردي (ت 450 هـ).
- معالم التنزيل/ البغوي (ت 516 هـ).
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ ابن عطية الأندلسي (ت 546 هـ).

³⁵ الترمذي. سنن الترمذي. ج. 5. ص. 318.

³⁶ البخاري، صحيح البخاري، ج4، ص141.

- لباب التأويل في معاني التنزيل / علاء الدين الخازن (ت 741 هـ).
- تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (ت 774 هـ).
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن / عبد الرحمن الثعالبي (ت 875 هـ).
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور / جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ).
- موسوعة التفسير المأثور / مجموعة من المؤلفين المعاصرين.

2-التفسير بالرأي: وهو أن يعمل المفسر عقله في فهم القرآن، والاستنباط منه، مستخدماً آلات الاجتهاد. وينقسم إلى قسمين: محمود ومذموم.

-التفسير بالرأي المحمود: هو كل رأي مستمد من القرآن والسنة، وكان صاحبه عالماً باللغة العربية وأساليبها والشرعية، فهو تفسير يجمع بين المأثور وبين اللغة والأحكام والأصول والقواعد، ولكن ينبغي أن يكون الرأي والاجتهاد فيما لا مجال للنص فيه، وليس للنبي فيه قول قاطع، ولا بد أن يكون ممن كان أهل للاجتهاد، ممن عرف لغة القرآن، وألم بقواعد الشرع وأصوله.

ومن أمثلته:

- جامع البيان في تأويل آي القرآن / أبو جعفر الطبري (ت 310 هـ).
- جمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي. والطبري لا يقف عند حدود النقل، فكثيراً ما يرجح بين الروايات، أو ينقدها، ويختار من ذلك ما يراه أقوى حجة وأوضح دليلاً، ويقول: (والصواب عندنا في ذلك). وهو يذكر وجوه القراءات ويوجهها، ويذكر وجوه الإعراب ويبين آراء النحويين فيها، ويشير إلى الأحكام الفقهية عند تفسيره آيات الأحكام فيبين مذاهب الفقهاء فيها.
- تأويلات أهل السنة / أبو منصور الماتريدي (ت 333 هـ).
- تفسير ابن فورك / أبو بكر بن فورك (ت 406 هـ).
- النكت والعيون / الماوردي (ت 450 هـ).

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / ابن عطية الأندلسي (ت 546 هـ).
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب / فخر الدين الرازي (ت 606 هـ).
- الجامع لأحكام القرآن / القرطبي (ت 671 هـ).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل / ناصر الدين البيضاوي (ت 685 هـ).
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل / حافظ الدين النسفي (ت 710 هـ).
- لباب التأويل في معاني التنزيل / علاء الدين الخازن (ت 725 هـ).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان / نظام الدين النيسابوري (ت 728 هـ).
- التسهيل لعلوم التنزيل / ابن جزى الغرناطي (ت 741 هـ).
- البحر المحيط / أبو حيان الأندلسي (ت 754 هـ).
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون / السمين الحلبي (ت 756 هـ).
- تفسير الجلالين / جلال الدين المحلي (ت 864 هـ) وجلال الدين السيوطي (ت 911 هـ).
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن / عبد الرحمن الثعالبي (ت 875 هـ).
- اللباب في علوم الكتاب / ابن عادل الحنبلي (ت 880 هـ).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / برهان الدين البقاعي (ت 885 هـ).
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / أبو السعود أفندي (ت 951 هـ).
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير / الخطيب الشربيني (ت 977 هـ).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / الألوسي (ت 1270 هـ).
- تفسير المنار / محمد رشيد رضا (ت 1354 هـ).
- تفسير المراغي / أحمد مصطفى المراغي (ت 1371 هـ).
- تفسير شلتوت / محمود شلتوت (ت 1383 هـ).

● التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" / محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393 هـ). وهو تفسير قيم، أمضى في تفسيره قرابة الأربعين عاماً، وقد اشتمل على كثير من الفوائد واللطائف والتحريرات، مع الحرص على تلمس الحكم من الأحكام والتشريعات، والإكثار من النقول عن الأئمة والعلماء في شتى العلوم سواء كانت شرعية أو لغوية أو بلاغية أو غيرها من فروع العلم. وقد بين منهجه فيه في مقدمته فقال: «...وقد اهتمت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتمت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى نظم الدرر في تناسب الآي والسور إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع، أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقا على المفسر. ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جملة كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله. واهتمت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة. وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعدادده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير. وسميته: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، واختصرت هذا الاسم باسم "التحرير والتنوير من التفسير" وها أنا أبتدئ بتقديم مقدمات تكون عوناً للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير".

● زهرة التفاسير / محمد أبو زهرة (ت 1394 هـ).

● خواطر الشعراوي / محمد متولي الشعراوي (ت 1418 هـ).

وغير ذلك من كتب التفسير بالرأي التي لا تكاد تحصر.

-وأما التفسير بالرأي المذموم فهو تفسير القرآن الكريم بمجرد الرأي والهوى فلا يستند على أصول شرعية وقواعد تفسيرية... وقد ذكروا كأمثلة عليه:

تفسير أبي علي الجبائي وتفسير القاضي عبد الجبار المعتزلي وغيرهم.

__ وأما تفسير القرآن وفق لغة العرب فهو من طرق التفسير، فإذا لم يجد المفسر لتفسير الآية تفسيراً لا في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين، عليه أن يرجع إلى اللغة العربية التي نزل بها، ولا يمكن لإنسان يجهل لغة العرب __نحواً وصرفاً وبلاغة ومعنى__ أن يقدم على تفسير القرآن؛ لأن هذا من أدوات الاجتهاد المعينة على إدراك معاني القرآن الكريم.

3- التفسير الفقهي لآيات الأحكام:

- أحكام القرآن للجصاص الحنفي.
- أحكام القرآن للكنيا الهراسي الشافعي.
- أحكام القرآن لابن العربي المالكي.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المالكي.

4_ التفسير الإشاري:

ومن أهم كتب التفسير التي اهتمت بالتفسير الإشاري:

- تفسير سهل التستري (ت 283 هـ): (تفسير القرآن العظيم).
- وتفسير أبي عبد الرحمن السُّلمي (ت 412 هـ): (حقائق التفسير).
- وتفسير أبي القاسم القشيري (ت 465 هـ): (لطائف الإشارات).
- وتفسير محيي الدين عبد القادر الجيلاني (ت 561 هـ): (تفسير الجيلاني).
- وتفسير أبي محمد البقلي الشيرازي (ت 606 هـ): (عرائس البيان في حقائق القرآن).
- وتفسير نجم الدين الكبري (ت 618 هـ): (التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي).

- وتفسير محيي الدين بن عربي (ت 638 هـ): (تفسير القرآن الكريم).
- وتفسير عز الدين الرسعني (ت 661 هـ): (رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز).
- وتفسير أحمد بن عجيبة (ت 1224 هـ): (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد).
- وتفسير شهاب الدين الألوسي (ت 1270 هـ): (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني).

ترجمة معاني القرآن الكريم

إنّ ترجمة القرآن على نوعين:

- 1- ترجمة حرفية بأن يضع كل كلمة كلمة بإزائها.
- 2- ترجمة معنوية تفسيرية بأن يعبر عن الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة للمفردات والتراكيب.

مثال تطبيقي عن الترجمة القرآنية:

ترجمة "الحمد لله" إلى "praise and gratitude belong to Allah"

بمعنى: "الثناء والشكر لله"

لأنه لا يمكن ترجمة الآية إلى المدح لله "praise belongs to Allah"

ولا يمكنك ترجمتها فقط إلى الشكر لله "Thanks belong to Allah"

فكلمة "الحمد" تتضمن شيئين: "praise" و "gratitude"

وهما شيئان مختلفان جداً، واللغة العربية تحوي كلمة لكل منهما:

فيمكن أن تترجم "praise" إلى "مدح" أو "ثناء"

ويمكن ان تترجم "gratitude" إلى "شكر"

ف "الحمد لله" تتضمن معنى المدح والشكر، فهي تشمل الأمرين في كلمة واحدة.

وعليه فالترجمة التفسيرية للقرآن عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، دون محافظة على نظم الأصل وترتيبه، ودون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه؛ وذلك بأن نفهم المعنى الذي يراد من الأصل، ثم نأتي له بتركيب من اللغة المترجم إليها، يؤديه على وفق الغرض الذي سيق له.

ومثالها أيضا لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29] ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدها غاية المد، ومثل هذا التعبير في اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدي المعنى الذي قصده القرآن؛ بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذي ينهى عنه القرآن، ويقول في نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذي نهى عنه القرآن؛ لأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة، المعنى الذي أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ. أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية، فإنه يأتي بالنهي عن التبذير والتقثير مصوّرَيْنِ بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها، ويناسب عادة من يتكلم بها، ومن هذا يتبين أن الغرض الذي أراده الله من هذه الآية، يكون مفهوماً بكل سهولة ووضوح في الترجمة التفسيرية، دون الترجمة الحرفية.

وإذا عُلِمَ هذا، أصبح من السهل القول بجواز ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية، فهي ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التي نزل بها.

حكم الترجمة الحرفية:

أجمع العلماء على مر العصور على استحالتها، وذلك لأنها متضمنة محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه؛ مع الاحتفاظ بدلالاته القريبة، والبعيدة، والأصلية، والتبعية، وسائر ما يمتاز به من إيقاع وتأثير وذلك لما يلي:

أ/ أن الترجمة الحرفية لا يمكن أن تقع أساساً لا في الشعر، ولا في النثر من كلام البشر، وفي جميع اللغات، فكيف بها في كلام الله الذي بلغ من البيان أعلاه، ومن اللسان أكمله وأعذبه؛ بصورة يعجز البشر أن يأتوا بمثله من لغته.

ب/ أن القرآن كلام الله المعجز لا يمكن الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو سورة من مثله فيما سواه من كلام البشر، ولو كان عربياً فضلاً عن الإتيان بمثله من كلام العجمي، وقد جاء هذا التحدي صريحاً للعرب أهل الفصاحة، والبلاغة، فعجزوا عن الإتيان بمثله، ولو بأقصر سورة منه.

ج/ أن الترجمة الحرفية لا بد فيها من مراعاة صورة الأصل في لفظه، ونظمه؛ مع الوفاء بكامل معانيه، ومقاصده، والإحاطة بكامل معاني القرآن، ومقاصده أمر مستحيل، ولا يمكن لأحد أن يحيط بكل دلالات القرآن، ومعانيه الأصلية والتبعية، ودقائق نظمه، وترتيبه، فضلاً عن أنه لا توجد لغة في الدنيا تحمل من الخصائص ما تحمله لغة القرآن الكريم.

د/ من المفهوم السائد عند اللغويين أنه لا توجد مفردتان متساويتان تماماً في دلالاتهما. ليس بين لغة وأخرى بل حتى في اللغة الواحدة، ولذا فالترجمة الحرفية للقرآن الكريم غير ممكنة عقلاً، ولا تسمى أي ترجمة قرآناً، ولا تعطى حكمه، ولا تحمل خواصه. ولذا قال العلماء: لا يجوز الإقدام عليها شرعاً لما يترتب عليها من المفاسد من ذلك ما يلي:

- 1/ إيهام أن الترجمة حلت محل القرآن في جميع خصائصه فيترك التعبد بتلاوته.
- 2/ فتح باب الاختلاف بين المسلمين حول هذا الكتاب الذي أمروا بالاعتصام به والتوحد عليه، إذ كل أمة ستكتفي بالترجمة الحرفية التي بين يديها، وأنها أوفى بالغرض المقصود من غيرها.
- 3/ الإخلال بحفظ القرآن الكريم كما أنزل في نظمه، وأسلوبه، وتعريضه للتغير، والتبديل، خاصة إذا وصل الأمر إلى حد الاستغناء عن القرآن بترجماته.
- 4/ فيها إخراج للقرآن الكريم من إعجازه، وفيه تضييع لكثير من أحكامه وبيانه، وتكذيب الله في أنه لا يأتي أحد بمثل القرآن، ولن يأتوا بمثله أبداً.
- 5/ ليس هنالك ضرورة للترجمة بغرض التعبد باللفظ؛ وذلك أن المشاهد بين كثير من المسلمين غير العرب عبر التاريخ وإلى يومنا هذا أنهم قرأوا القرآن وحفظوه رغم عدم معرفتهم باللغة العربية، وهذا من فضل الله على الناس كافة بأن يسر عليهم كتابه العزيز.

حكم الترجمة التفسيرية:

إنّ تفسير القرآن الكريم من العلوم التي فُرضَ على الأمة تعلمها، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:158]. والترجمة التفسيرية تفسير للقرآن بغير لغته، فكانت أيضاً من الأمور التي فُرضت على الأمة؛ بل هي أكد؛ لما يترتب عليها من المصالح المهمة؛ كتبليغ معاني القرآن؛ وإيصال هدايته إلى الناس أجمعين، ممن لا يتكلمون العربية، ولا يفهمون لغة العرب، وأيضاً حماية العقيدة الإسلامية من كيد الملحدين، والدفاع عن القرآن بالكشف عن أضاليل المبشرين، الذين عمّدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوّها بعقائد زائفة، وتعاليم فاسدة، ليُظهروا القرآن لمن لم يعرف لغته في صورة تُنفّر منه، وتصدّ عنه.

وقد أجاز العلماء هذه الترجمة، وأكدوا على أهميتها لما يتحقق من خلالها من مصالح عظيمة، وفوائد قيمة. قال الشيخ محمد شاكر: "إن أئمة الإسلام الذين أجمعوا على تحريم ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية لم يختلفوا في جواز تفسيره باللغات الأعجمية، كما أجازوا تفسيره باللغة العربية".

وقال السيد محمد رشيد رضا: "وحيث لا تكون هذه الترجمة هي للقرآن، وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطئ في فهمه ويصيب. فهي لا تخرج من اسمها عن كونها تفسيراً للقرآن بلغة أخرى غير لغة القرآن الكريم".

فوائد الترجمة التفسيرية:

لترجمة القرآن الكريم ترجمة تفسيرية فوائد كثيرة من ذلك:

1/ تبليغ رسالة القرآن الكريم العالمية للناس جميعاً، خاصة غير العرب؛ لأنّ القرآن الكريم أنزله الله بلسان عربي مبين للناس جميعاً، ولا سبيل لإيصاله للناس، وتبليغه إليهم إلا من خلال ترجمة معانيه إلى تلك اللغات المتنوعة.

2/ إزالة الأفكار المنحرفة في وسط غير المسلمين التي انتشرت بينهم بسبب بعض الترجمات الخاطئة سواء أكان ذلك في جوانب العقائد، أم العبادات، أم المعاملات، وأعظمها ما وصل إليهم عبر ترجمات قام بها بعض أعداء الإسلام بقصد صد الناس عن الدين، وتضليل المسلمين عن الإسلام الصحيح.

3/ الدفاع عن القرآن الكريم، وحمايته من أيدي العابثين به من خلال تحريف معانيه، وتشويه قيمه.

4/ تحبيب القرآن ولغته العربية إلى غير العرب من خلال تقريب معانيه إليهم مما يسهل عليهم فهم الإسلام بصورة صحيحة، وتصور مقاصده بصورة عميقة، والالتزام به، ونشر فضائله بقوة وعزيمة.

5/ قطع الطريق أمام أعداء الأمة والدين؛ الذين أدخلوا سمومهم من خلال الترجمات الكثيرة التي قام بها بعض القساوسة والمبشرين والمستشرقين قصدوا من خلالها القدح في الإسلام، وتحريف معانيه، والطعن في رسول الإسلام.

6/ توحيد الأمة المسلمة تحت لسان واحد؛ وذلك من خلال صلاتهم وتلاوتهم للقرآن الكريم وفق اللسان الذي اختاره الله عز وجل لهم، وهو من أعظم عوامل قوتهم ووحدتهم.

7/ تلبية حاجة الثقافة العصرية في العالم، بعد ما نشأ ما يسمى بحوار الحضارات والأديان، وتعايشها، وعدم التصادم بينهما، بحيث يعلو الحوار والحجة بينهما.

ضوابط الترجمة التفسيرية:

وضع العلماء ضوابط ينبغي مراعاتها في أثناء القيام بها؛ حتى تكون هذه الترجمة مستوفية للغرض، محققة للمصالح التي قصدت من خلالها، ومنعاً للمفاسد التي يمكن أن تنجم من خلالها؛ ومن أبرز ذلك ما يلي:

1/ الالتزام بترجمة معاني القرآن الكريم، وتجنب الترجمة الحرفية.

2/ أن تترجم المعاني الواضحة المحكمة الموافقة لأصول الشريعة، وقواعد اللغة المستمدة من القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة، واجتهادات علماء الأمة الموقفة، وعدم إخضاع الترجمة والتفسير للآراء المذهبية والاجتهادات الشخصية والآراء الفلسفية، فلا بد من التأكد من صحة الكلام المترجم أولاً رواية ودراية.

3/ أن يكون المترجم عارفاً معرفة تامة بأوضاع اللغتين المترجم منها، والمترجم إليها بأسرارهما، وخصائصهما، ودلالاتهما، مع التزام الصدق والأمانة في النقل، بعيداً عن الهوى، والأغراض الخاصة.

4/ كتابة النص القرآني كما أنزل باللسان العربي، ثم يكتب التفسير العربي بجواره، ثم ترجمته؛ حتى لا يتوهم أحد أن هذه الترجمة التفسيرية هي ترجمة حرفية للقرآن، ويفهم الكل على أنها فقط ترجمة لذلك التفسير العربي.

5/ وفاء الترجمة التفسيرية بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن، مع عدم التصرف في مفهوم الآيات القرآنية لدى الترجمة بزيادة أو نقصان.

6/ الإبقاء على المصطلحات الإسلامية التي يتعذر ترجمتها إلى اللغات الأخرى بلفظها العربي مع شرحها في قائمة تلحق بالترجمة كالصلاة والزكاة والحج والعمرة.

7/ الالتزام باستخدام المصطلحات والتعبيرات الإسلامية عند الترجمة وتجنب الكلمات والمصطلحات الخاصة بالأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية والبوذية وغيرها.

8/ اختيار اللغة المعاصرة المفهومة لدى معظم الناطقين باللغة المترجم إليها وتجنب استخدام اللغة القديمة المهجورة.

9/ أن تقوم الترجمة على عمل جماعي متكامل من لجان تضم مختصين في علوم القرآن والشريعة واللغة العربية واللغة المترجم إليها وذلك لمعالجة قصور الأعمال الفردية، فالعمل الجماعي أكثر دقة، وانضباطاً، وكماً.

10/ تسميته ترجمة تفسيرية للقرآن الكريم، ولا يجوز تسميته ترجمة القرآن الكريم، ويبين ذلك بصورة واضحة في مقدمة الكتاب.

حكم قراءة الترجمات القرآنية في الصلاة:

يرى جلّ العلماء عدم جواز الصلاة وقراءة القرآن بالترجمة، إلا ما روي عن الإمام أبي حنيفة. فالشافعية قالوا: (لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنته العربية أم عجز عنها). والحنابلة قالوا: (ولا تجزئ القراءة بغير العربية، ولا إبدال لفظ عربي، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن، ويلزمه التعلّم).

وروي مثل ذلك عن المالكية. يقول أبو بكر بن العربي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: 44]، قال علماؤنا: وهذا يبطل قول أبي حنيفة بأن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ نفى أن يكون للعجمة إليه طريق - فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه؟ وأما ابن حزم فيحكم بفسق من قرأ غير العربية في الصلاة، فيقول في محله: "من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربية، أو بالألفاظ غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى، عامداً لذلك، أو قدّم كلمة أو أخرها، عامداً لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق، لأن الله تعالى قال: ﴿قُرْآنًا

عَرَبِيًّا» [يوسف:2]، وغير العربي ليس عربيا، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله، وقد ذمّ الله تعالى من فعلوا ذلك فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13].

ويوجه الشيخ محمد أبو زهرة قول الحنفية في مخالفتهم لجمهور الفقهاء بقوله: "إنّ أبا حنيفة الذي عاش أكثر من خمسين سنة في العصر الأموي، قد أدرك الفرس وهم يدخلون في دين الله أفواجا، وهم يلوون ألسنتهم بالعربية، لا يحسنون النطق بها، ولا تستطيع ألسنتهم إخراج الحروف العربية من مخارجها، وإن عرفوا العربية في الجملة، واستطاعوا التفاهم بها بوجه عام، ثم رأهم ينطقون بأي القرآن نطقا غير حسن فرخص فيها واعتبرها ذكرا لا قرآنا. ويبدو أنه رجع عن هذا القول خوفا من أن يظنّ أن الترجمة قرآن يقوم مقام الأصل العربي، فأجازها للعاجز فقط، واعتبرها ذكرا لا قرآنا كذلك. كما اعتبرها صاحباه على الوضع نفسه".

المحاضرة الثامنة: علم إعجاز القرآن

القرآن كتاب الله المعجز الذي تحدّى الله تعالى به الأوّلين والآخرين من الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك عجزاً بيّناً، وهو معجزة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم تُثبت نبوّته ورسالته، وقد كان كلُّ نبيٍّ يُرسله الله تعالى إلى قومه مُؤيِّداً بمعجزة أو أكثر من المعجزات؛ فصالح عليه السلام آتاه الله الناقة آيةً وإعجازاً لقومه عندما طلبوا منه آية الناقة، وموسى عليه السلام حين أرسله الله تعالى إلى فرعون أعطاه معجزة العصا، وعيسى عليه السلام أعطاه الله آياتٍ، منها: إبراء الأكمه، وإحياء الموتى بإذنه تعالى.

أمّا معجزة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقد كانت هذا القرآن المعجز؛ روى البخاريّ بسنده عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "ما من نبيٍّ إلا أُوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيته وحياً أُوحِيَ إليّ، فأودُّ أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"

فالقرآن الكريم هو إذاً معجزة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أعجز الخلق أن يأتوا بمثله، وقد تحدّاهم القرآن أن يأتوا بمثله فعجزوا.

وُثبوت نبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم بُيئت على هذه المعجزة، وهي معجزة عامّة عمّت الثقلين، وبقيت بقاء العصر، ولزوم الحجّة به باقٍ من أوّل ورودها إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6]، فلولا أن سماع القرآن يُعدّ حجّة على سامعه لم يُوقف أمر المشرك على سماعه، ولا يكون حجّة إلا إذا كان معجزة.

وإعجاز القرآن باقٍ، وبقاء الإعجاز دليلٌ على بقاء الرسالة المحمّديّة، وأنها رسالة عامّة للبشر كلّهم، وفي بقاء الرسالة بقاءً للشريعة، فهي إذاً شريعة باقية خالدة.

تعريف المعجزة: أمرٌ خارق للعادة، مَقْرُونٌ بالتحديّ، سالمٌ من المعارضة.

والمقصود من المعجزة ليس هو إعجاز الناس لذات الإعجاز أي لمجرد إيقاعهم في العجز عن الإتيان بمثل المعجزة، بل المقصود هو الإذعان والإيمان بصاحبها أنه رسول من قبل خالق هذه السنن وهو الله تعالى. كانت معجزات كل نبي ورسول نابعة من بيئته، ومتناسبة مع قومه، فتأتيهم على وفق ما برعوا فيه حتى يكون ذلك أدعى لإيمانهم، ولإقامة الحجة لأن المعجزة لا تحقق الغاية منها إلا إذا حصل التحدي بها ولا يتحقق التحدي لأمة من الأمم لا تعرف شيئاً عن المتحدى به.

فقد بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم في قوم كان الكلام بضاعتهم، فرسان البلاغة والفصاحة والبيان، الشعر والخطب البليغة زادهم وشرابهم، قصيدة تجذبهم فتكون وكأنها معبود لهم، فتعلق في الكعبة أعز مكان وتكون من المعلقات، كانت أسواقهم تبادلاً وتداولاً، يتبادلون بضائعهم ويتداولون أشعارهم. فجاءتهم معجزة من جنس ما عرفوا وألفوا، فتحداهم بالمعروف عندهم والمألوف لديهم.

التحدي:

تحدى القرآن البشرية جمعاء - بل الإنس والجن معاً - على أن يأتوا بمثل هذا القرآن نظماً وبياناً، وجاء ذلك في عدة آيات، منها:

1_ التحدي بالإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

2_ التحدي بالإتيان بعشر سور ولو كانت هذه السور مفتریات حسب زعمهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

3_ التحدي بالإتيان بسورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أوجه الإعجاز القرآني:

لا يُحيط بوجوه الإعجاز إلا مُنْزِل القرآن سبحانه وتعالى؛ ومن أبرزها ما يلي:

- الإعجاز اللغوي.
- الإعجاز الغيبي (الإخبار بالمعيبات).
- الإعجاز العلمي.
- الإعجاز التشريعي.

1_ الإعجاز اللغوي:

هو أحدُ وجوه الإعجاز الذي هو إعجاز شاملٌ لكلِّ ما في كلمة "إعجاز" من معنى؛ فهو مُعْجَز في ألفاظه وأسلوبه، وهو مُعْجَز في بيانه ونظمه، يجد القارئ فيه صورةً حيَّةً للكون والحياة والإنسان، وحيثما قَلَب الإنسان نظره في القرآن وَجَد أسرارًا من الإعجاز اللغوي:

أولاً: في نظامه الصوتي البديع يجرس حروفه حين يسمع حركاتها وسكناتها، ومدّها وعُنْها، وفواصلها ومقاطعها.

ثانياً: في ألفاظه التي تقي بحقِّ كلِّ معنى في موضعه، لا يَنبُو فيه لفظٌ فيقال: إنه زائد، ولا موضع يُقال: إنه يحتاج إلى لفظٍ ناقص.

ثالثاً: في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم بما تُطيقه عقولهم، فيراها كلُّ واحدٍ مقدرة على قدر عقله، ووفق حاجته.

رابعاً: في إقناع العقل وإقناع العاطفة بما يفي بحاجات النفس البشرية؛ تفكيراً ووجداناً، في تكافؤٍ واتزان، فلا تطغى قوّة التفكير على قوّة الوجدان، ولا قوّة الوجدان على قوّة التفكير.

وإن دقة استعمال القرآن الكريم للألفاظ والتراكيب وتناسق تلك الكلمات وترتيبها شيء معجز حقاً، ومن بين الأمثلة على ذلك:

— قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

[الملك:23]، وقد ورد ذكر "السمع والأبصار والأفئدة" في هذه الآية وفي عدة آيات من القرآن الكريم في

سورة المؤمنون والنحل، وهذه الحواس ورد ذكرها في سياق النعم الإلهية التي يتنعم بها كل إنسان، والآية الواردة فيها هذه الكلمات تبقى أوسع مجالاً للجمال البياني من حيث اللغة والعلوم، فالله ذكر السمع في كل هذه الآيات في أولها، علماً بأن حاسة السمع هي التي تعمل أولاً في الطفل الجنين، ولا يعمل العقل والفكر إلا بعد فترة من ميلاده، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الجنين يستطيع أن يحس الأصوات الخارجية، كما أنها وردت مفردة، وفي ذلك أيضاً سر من أسرار الخلق الإلهي، إذ إن الإنسان لا يستطيع أن يسمع أكثر من صوت واحد في الوقت الواحد، بينما يستطيع أن يرى أشياء كثيرة بلمح البصر، والفؤاد هو الآخر يحتوي على مختلف العواطف والمشاعر.

— وكذلك دقة استعمال الألفاظ وإحكام المعاني كالتعبير بزواج بدل امرأة والعكس، فلفظة "زوج" يستعملها حين يكون التوافق بين الزوجين قائماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ...﴾ [البقرة: 35]. وأما لفظ "امرأة" فيستعملها حين يصبح التوافق ناقصاً أو يشوبه خلل، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ﴾ [التحریم: 10]. فتغيّر اللفظ يعكس طبيعة العلاقة. وصدق سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقَشَّعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23].

وعدد آيات القرآن نحو ستة آلاف ومائتي آية (6200)، تناوَلت موضوعاتٍ شتى؛ في الاعتقاد، والتشريع، والأخلاق، والقصص، وغيرها، وكلّها جاءت في غاية الدقّة والإحكام، مع روعة البلاغة والبيان. وليس في القرآن معنًى يُعارض معنًى، أو حكمٌ يُناقض حكماً، أو مبدأ يهدم مبدأ، أو غرض لا يتفق مع آخر، وصدق الحقُّ جلَّ وعلا إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]³⁷.

³⁷ ومن الأوجه الفاسدة والأقوال الباطلة في إعجاز القرآن القول بالصرفة: وهو قول منسوب إلى أبي إسحاق النظام من المعتزلة والإمام المرتضى من الشيعة ثم إلى أبي إسحاق الإسفرائيني من أهل السنة.

2_ الإعجاز الغيبي (الإخبار بالمُغيَّبات):

من وجوه إعجاز القرآن إعجازه في الإخبار بالمُغيَّبات، هذه المُغيَّبات قد تتعلّق بالماضي السَّحيق المُوغل في القَدَم ممَّا لم يشهده رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، الذي خاطبه ربُّه سبحانه فقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]؛ وذلك تعقياً على قصة امرأة عمران، وتمهيداً للحديث عن مريم عليها السلام.

ومنها ما يتعلّق بالحاضر الواقع في زمن نزول القرآن عن أمور مُتعلّقة بغيوبٍ لِمَن هم في عصر الرسالة. ومنها ما يتعلّق بغيوبٍ مستقبلية لم تكن وقعت في عهده صَلَّى الله عليه وسلّم، وممَّا يكون في يوم القيامة.

أ- من الغيوب التي وقعت في الماضي:

♦ في سورة البقرة أخبر الحقُّ جلَّ وعلا عن مُغيَّبات وقعت لبني إسرائيل، وما حدث لموسى عليه السلام معهم؛ مثل قصّة البقرة، وقصة اتّخاذهم العِجل، وكذلك قصّة بناء الكعبة على يد إبراهيم وإسماعيل.

♦ وفي سورة البقرة كذلك قصّة طالوت وجالوت، وانتصار بني إسرائيل على أعدائهم وقيام مملكة داود عليه السلام.

وخلاصة هذا القول أنّ وجه الإعجاز في القرآن هو الصرفة أي: أنّ الله صرف قلوب العرب عن معارضة القرآن فزهدهم في معارضته فلم تتعلّق إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا رغم توافر البواعث والدواعي، بل زعموا أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية وعاق قدرتهم البلاغية.

والأمة بفرقها ومذاهبها مجمعة على خلاف هذا، فالمعتزلة وعلى رأسهم الزمخشري قد أبطل مثل هذا القول، والطبرسي الشيعي قد فنده، وأهل السنة كذلك، فهو مذهب باطل.

والإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله، ثم قال السيوطي: "ولو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون بالمنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه".

♦ وفي سورة آل عمران قصّة امرأة عمران، وقصّة مريم وولدها عيسى ابن مريم عليهما السلام ونبوّته ورسالته.

♦ وفي سورة الأعراف: قصّة عاد، وثمود، وقصة خلق آدم عليه السلام، وقصّة ما وقع لآدم من إبليس لعنه الله، وإخراج آدم من الجنّة بوسوسته، وقصّة تمكين الله تعالى لموسى عليه السلام وبني إسرائيل.

♦ وفي سورة يوسف قصة يوسف عليه السلام كاملة في موطن واحد.

♦ وفي سورة القصص قصّة موسى من لحظة ميلاده حتى خروجه من مصر وعودته إليها، والصراع الذي دار بين موسى ودعوته، وفرعون الذي رفض دعوة الإسلام التي جاء بها موسى عليه السلام.

♦ وكذلك قصّة قارون وكيف أهلكه الله تعالى بطغيانه وجبروته.

♦ وفي سور كثيرة من القرآن ألوانٌ مُتنوّعة من القصص، الذي يُخبر عن غيبيّات من الماضي ما كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يَعْلَمَهَا إلا من خلال الوحي، وفي التعقيب على قصة موسى في سورة القصص يقول الحق جلّ وعلا: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 44-46].

من كلّ هذا يتّضح أنّ أكبر دليل على أنّ القرآن من عند الله تعالى هذا القصص، الذي يعرض لوقائع تفصيليّة في تاريخٍ غابرٍ ما شهدته رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولكنه علّم الذي لا تحفى عليه خافيّة في الأرض ولا في السماء.

ب- من الغيوب التي وقعت في الحاضر المُعاصر لنزول القرآن:

من إعجاز القرآن الإخبار بالمعبيّات التي كانت مُعاصرة لزمان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فضخّ مكاييد المنافقين ومؤامراتهم؛ كما حدّث في مسجد ضرار؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا

وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: 107-110﴾].

وكان نَقَرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بَنَوْا هَذَا الْمَسْجِدَ لِلْكَيدِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، وَجَاؤُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصَلِّيَ فِيهِ فَيَتَّخِذُوهُ مَسْجِدًا وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لَذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمُطَيَّرَةِ، وَنَحْنُ نَحْبُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَتُصَلِّيَ فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَشُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ". ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ مَنْ تَبُوكَ مَنْ يَهْدِمُهُ، فَهَدِمَ وَأُحْرِقَ.

◆ وكذلك ما أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ: مَوْفَقُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ الَّذِي قَالَ عَنْهُ الْقُرْآنُ: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 7-8].

وكان عبدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ قال تلك الكلمة في حقِّ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا سُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ عَنْ قَوْلِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ أَنْكَرَ أَنَّهُ قَالَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ تَصْدِيقَ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

ج- من الغيوب المستقبلية التي أَخْبَرَ بِهَا الْقُرْآنُ:

وهي كثيرة؛ فَمِنْ ذَلِكَ: إِخْبَارُ الْقُرْآنِ عَنِ الرُّومِ أَنَّهُمْ سَيَنْصَرِفُونَ عَلَى الْفُرْسِ فِي بَضْعِ سِنِينَ حَيْثُ نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ

مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الروم: 2-6]﴾، وَتَحَقَّقَ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْفِعْلِ؛ وَانْقَضَ هِرْقْلُ عَظِيمِ الرُّومِ بَعْدَ هَزِيمَةِ الرُّومِ بِبُضْعِ سَنِينَ عَلَى مَعَاقِلِ الْفُرسِ، فَلَاذَ الْفُرسِ بِالْفِرَارِ، وَهُزِمُوا هَزِيمَةً فَادِحَةً، ثُمَّ عَادَ هِرْقْلُ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عَاصِمَةِ الرُّومِ، وَتَمَّ لَهُ ذَلِكَ فِي بُضْعِ السَّنَوَاتِ الَّتِي أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِهَا. وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ انْتِصَارِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَانْتِشَارِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ مُتَكَاثِرَةٌ، وَقَدْ حَدَّثَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 32-33].

3_ الإعجاز العلمي:

قَدْ تَقَدَّمتِ الْعُلُومُ فِي هَذَا الْعَصْرِ تَقَدُّمًا كَبِيرًا، وَكَثُرَتْ مَسَائِلُهَا، وَلَمْ يَتَعَارَضْ شَيْءٌ ثَابِتٌ مِنْهَا مَعَ آيَةٍ مِنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا يُعَدُّ مِنَ الْإِعْجَازِ.

وَإِنَّ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيِّ بَابٌ وَاسِعٌ، وَلَا نَقْصِدُ التَّفْسِيرَ الْعِلْمِيَّ الْقَائِمَ عَلَى بَعْضِ النِّظَرِيَّاتِ وَالْفَرَضِيَّاتِ الَّتِي لَا تَزَالُ قَيْدَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ، وَلَكِنْ نَقْصِدُ تِلْكَ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ الرَّاسِخَةَ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْعِلْمُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، فَتَجِدُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ إِشَارَاتٍ إِلَى جُمْلٍ مِنْهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ هِدَايَةٌ وَإِرْشَادٌ، وَهُوَ حِينَ يُشِيرُ إِلَى حَقِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ، يُشِيرُ إِلَيْهَا إِشَارَةً مُوجِزَةً مُجْمَلَةً يَعْرِفُهَا الْعُلَمَاءُ بَعْدَ طَوَّلِ الْبَحْثِ وَالدَّرْسِ، وَمِنْ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ الْإِعْجَازِيَّةِ الْبَالِغَةُ مَا يَلِي:

1 - التَّلْقِيحُ فِي النَّبَاتِ ذَاتِيٍّ وَخَلْطِيٍّ، وَالذَّاتِيُّ هُوَ مَا اشْتَمَلَتْ زَهْرَتُهُ عَلَى عَضْوِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ، وَالْخَلْطِيُّ هُوَ مَا كَانَ عَضْوُ التَّذْكِيرِ فِيهِ مُنْفَصِلًا عَنْ عَضْوِ التَّأْنِيثِ كَالنَّخِيلِ فَيَكُونُ بِالنَّقْلِ، وَمِنْ وَسَائِلِ ذَلِكَ الرِّيحُ، وَهَذَا هُوَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: 22].

2 - الأوكسجين هو غاز ضروري للتنفس، ويقل في طبقات الجو العليا، فكُلَّمَا ارتفع الإنسان في أجواء السماء أحسَّ بضيق الصدر، وصعوبة التنفس، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125].

3 - وفي مجال علم الأجنة يقول الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: 5-7]. وقد أثبت العلماء هذه الحقيقة العلمية؛ إذ إنَّ التكوينات الأولى للبويضة والحيوان المنوي تبدأ من بين الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ، وهي عظام الصدر.

4 - ما أُرشد إليه القرآن من اختلاف بصمات الأصابع في الإنسان في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 3-4]، فهذه الآية تلفت النظر إلى قدرة الله تعالى، وحكمته في خلق البنان بصورة مختلفة من إنسان إلى آخر؛ ممَّا يترتب عليه اختلاف بصمات الأصابع.

وإذا ذهبنا نُعدِّد أمثلةً للإعجاز العلمي في القرآن نجدها كثيرةً، والقرآن حين يعرض هذه الآيات الكونية كدلائل للإعجاز، يعرضها في معرض الهداية بالقرآن الذي هو كلام العليم الخبير بأسرار السماوات والأرض، ويهدف منها إلى لفت الأنظار إلى بديع قدرة الله تعالى كدليل على وحدانيته وألوهيته.

4_ الإعجاز التشريعي:

عرِّفت البشرية في عصور التاريخ المختلفة ألواناً مختلفة من المذاهب والنظريات، والنُّظُم والتشريعات التي تَسْتَهْدِف سعادة الفرد والجماعة، ولكن واحداً منها لم يبلغ من الروعة والإتقان والإجلال مَبْلَغ القرآن في تشريعاته ونُظُمه، بل ولا دأناه، ولا قَارَبَهُ.

لقد جاء القرآن لِيَبْنِي عَقِيدَةً في القلوب تُؤثِّر على سلوك الإنسان ووجدانه ومشاعره، وترسُم في خنايا نفسه مَسَارِبَ للتربية الإيمانية العميقة التي تقوم على عقيدة التوحيد.

فأساس التشريع الإسلامي هو في تلك العقيدة، التي يُرَبِّي عليها القرآنُ أبناءَ الإسلام فتُترَجَم إلى سلوك عملي، عقيدة تقوم على أن الله تعالى خالقُ الكونِ ومُنشِئُه، والمهيِّمُ على كلِّ كبير وصغير فيه. والعالم الذي يَحْيَا فيه الفردُ المسلم هو جزءٌ من هذا الكون الكبير، يجب أن يَسِير على وَفْقِ المنهج الذي ارتَضَاهُ له خالقه، ومن أُسُس عقيدة التوحيد ما جاء في القرآن مثل:

◆ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1-4].

◆ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

◆ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: 3].

◆ وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

◆ وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

◆ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

هذه الحقائق عندما تَعِيش في وجدان المسلم، ويتربَّى عليها، يكون انقيادُه لشرِعة الله المنزلة في كتاب الله انقيادًا تامًّا مُستَوليًّا على كلِّ شخصيَّته، ويعدُّ نفسه متعبدًا إلى الله تعالى خالقه بكلِّ تكليف، وكلِّ أمر، وكلِّ نهي يَرِدُ في القرآن أو في سنَّة النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم؛ يقف منه الموقف المدعِن للأمر بالائتِمار، وللنهي بالانتِهاء.

وهكذا إذا صحَّت العقيدة كان الأخذ بالتشريع القرآني على مستوى صحَّة العقيدة، فتصبح كلُّ عبادة مفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها من ضروب العبادة مَظْهَرًا من مَظاهر الصلاح، الذي ينعكس أثره على المجتمع في مجموعِه، والدولة في نظامها.

فالصلاة تربية روحية يتعلَّم الفرد من خلالها نظام الجماعة؛ فهو يُؤدِّيها في جماعة خمس مرَّات في اليوم والليلة، فيتعلَّم النظام، ويتعلَّم الإيجابية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهو في اتِّجاهه إلى قبلة واحدة

يتفكر في تلك القبلة التي يُصَلِّي إليها المسلمون جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها؛ فيشعر بالوحدة الإسلامية، والآصرة الإيمانية، تملأ أرجاء نفسه، وتسيطر على كيانه ومشاعره.

والزكاة تَقْتَلِع من النفس جذور الشرِّ، وعبادة المال، والحرص على الدنيا، وهي في صالح الجماعة؛ فهي تُقيم دعائم التعاون بين أفراد المجتمع، وتشعر النفس بتكاملها مع الآخرين.

والصوم ضبطٌ للنفس، وشحذٌ لعزائمها، وحبسٌ للشهوة، وتقويةٌ للإرادة، وهو مظهرٌ اجتماعي يجمع المسلمين شهراً كاملاً على نظام واحد في الطعام والشراب، فتقوى الأواصر، وتتوحد الهِمَم والمشاعر. والحجُّ سياحة روحية، وتحوُّل في أماكن مهبط الوحي الأولى، وبها ينخلع المسلم من أهله ووطنه وجواذب الأرض والطين؛ لينضمَّ إلى قافلة المقيدين على الله.

ومن تربية القرآن للفرد ينتقل إلى بناء الأسرة على دعائم صالحة من الودِّ والرحمة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

وتقوم المعاشرة داخل الأسرة المسلمة على المعروف، وللرجل القوامة التي تعني: القيام بالرعاية، واستشعار المسؤولية.

ثم يأتي نظام الحكم الذي يقوم في المجتمع المسلم، فهو كما أراده الله تعالى، وبيَّنه في القرآن نظامٌ يقوم على الشورى الملزمة، فلا استبداد برأي، ولا تعطيل لقوى المجتمع الحيَّة في تنمية المجتمع وترقيته؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

هي إذاً حكومة الشورى والمساواة، والعدل والحرية، وتحكيم الشريعة في الصغير والكبير من أمور الدولة؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

والتشريع الإسلامي جاء تشريعاً قائماً على أصول صالحة عامة؛ فهو تشريع مرن يصلح لحاجة الجماعة البشرية في كل عصر، وهو تشريع متوازن متكامل؛ يجمع بين حاجات الروح ومطالب البدن. ولقد جاء القرآن بأصول التشريعات المختلفة؛ من تشريعات اجتماعية واقتصادية، وسياسية ودستورية، ودولية وجنائية، في أسلوب سهل بديع يهَيِّئ الملكة العلمية للاجتهد والتطوير المنضبط بالثوابت والقطعيّات، وبما يتلاءم مع ظروف العصر وحاجات كل جماعة من الجماعات البشرية.